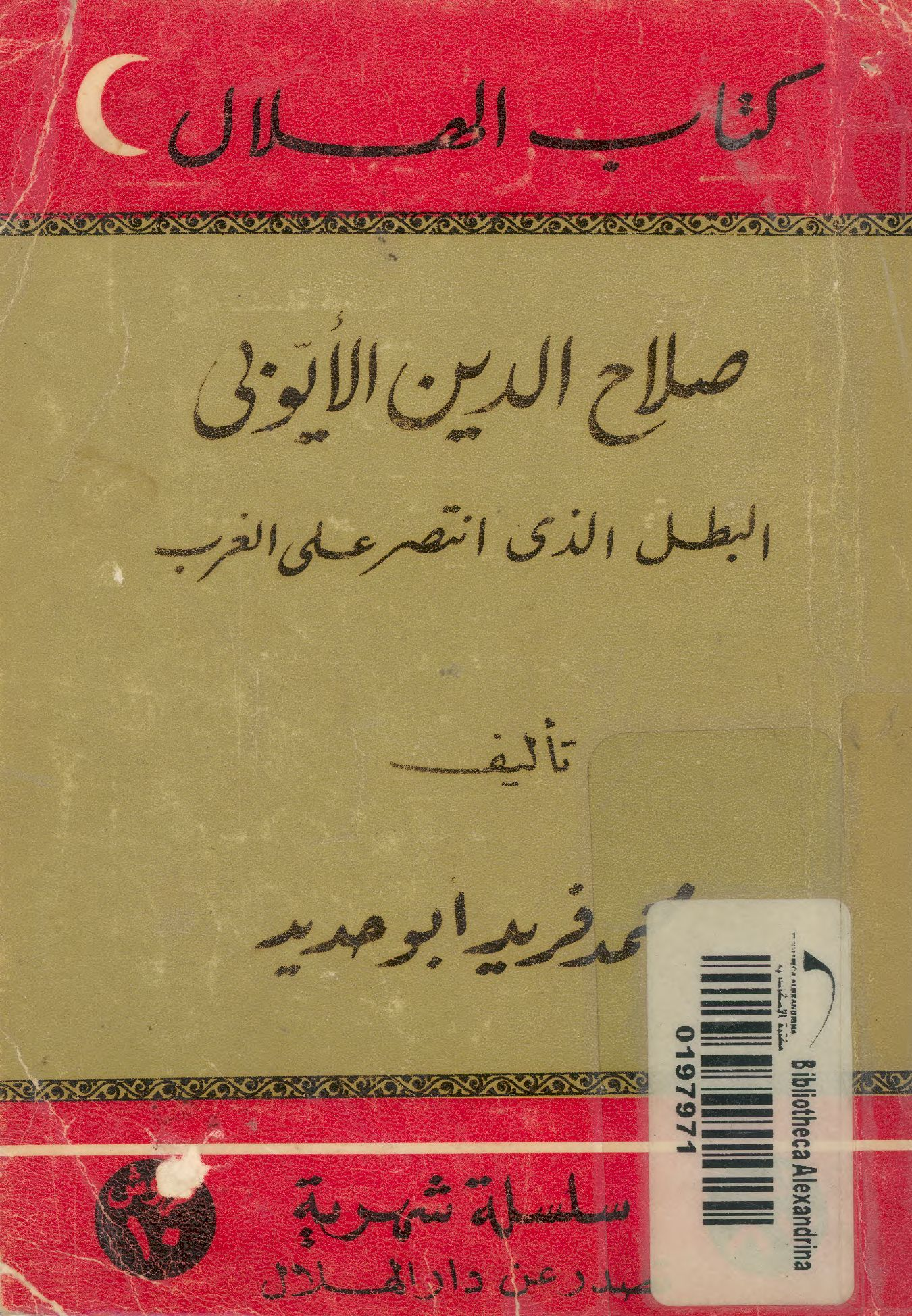


Bibliotheca Alexandrina
0197971

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٨٧ ـ ذو القعدة ١٣٧٧ ـ يونية ١٩٥٨

No. 87 — Juin 1958

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ـ مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ـ سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا ـ السعودية والعراق والاردن وليبيا ١٣٠ قرشا صاغا ـ الامريكتين ٥ر٥ دولارت ـ فى سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

صلاح الدين الأيوبي

البطل الذي انتصر على الغرب

تأليف

محمد فريد أبو حديد

طبعة مزدانه بالخرائط والصور

حقوق الطبع محفوظة لدار الهلال



صلاح الدين الايوبى

مقدمة

منذ حوالى ثلاثين سنة رات لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ جريا على سنتها فى خدمة الثقافة القومية ـ أن تصدر سلسلة من الكتب بعنوان « سلسلة المعارف العامة » وعهدت الى بتأليف حلقة من حلقاتها

فاستعرضت الموضوعات لاختار أقربها الى نفسى ،واجدرها بتحقيق غرض اللجنة من اصدار تلك السلسلة ، فلم أجد خيرا من ذكرى صلاح الدين الايوبى .

وانه ليطيب لى بمناسبة طبعه للمرة الثانية ، بعد هذه الحقبة الطويلة ، أن أقف حينا لألقى نظرة الى ماورائى ، لاتأمل تلك الايام التى مرت بنا ، وما كان فيها من آمال وآلام ، وما سبحنا فيه خلالها من الأحلام ، حين كنا لا نجد لانفسنا تعلة نرفه بها عنها ، الا أن ننتقل بها الى مسارح الرؤى فى الماضى ، او عوالم الرجاء فى المستقبل . ذلك لأن الحاضر كان يحيط بنا كأنه قطع الظلام ، ونحن فى قاع موجة هائلة أثارها أعصار الاستعمار المدمر ، ومن حولنا أمواج كالجبال ـ ظلمات بعضها فوق بعض من أخرج فيها يده لم يكد يراها . كانت سبحاتنا

فى احلامنا تبعث الينا بشعاع خافت من الأمل ، كأنه وميض نجم فى ثنايا السحب المتراكمة

كنا نرى عالمنا العربى والاسلامى ، وقد تقاسمته قـوى الاستعمار كما تتقاسم النمور فرائسها ، فيكاد اليأس يستولى على نفوسنا ، لولا ماكنا نقوى به أنفسنا ، اذ نستعرض مامر بالامة العربية والاسلامية من محن طاحنة ، وكوارث فادحة ، وكيف خرجت من ذلك كله وهى قوية سليمة ، بفضل ايمانها وثقتها بنفسها . فكنا نتمنى . . .

. كنا نتمنى أن يتمخض المستقبل يوما عن مثل ما تمخض به الماضى ، وأن ينجب من الأبطال المخلصين الاقوياء مثل أولئك الذين واجهوا المحن ، وخرجوا بالامة من غمارها ، وهى قوية سليمة

فاختيار موضوع صلاح الدين لم يكن سوى أثر من هـذه الحالة النفسية التى كنا نتعلل فيها بالآمال ، ونستلهم الاحلام، عسى الله أن يبعث من هـذه الامة فى يوم من الايام مثل ذلك الرجل العظيم الذى ظهر فى الأمة العربية والاسلامية منذ نيف وثمانية قرون ، فى عهد مظلم ملىء بالكوارث مثل عصرنا الذى كنا نعيش فيه . فقد جاء صلاح الدين فى وقت طغت فيهعلى الامة العربية والاسلامية موجة من موجات الاعتداءتشبه موجة الاستعمار التى كانت تعصف بنا . وكانت ظروفالامةالعربية والاسلامية فى عهد صلاح الدين هى الظروف التى كنا نضيق بها ونحس الذلة والحنق منها . كانت طائفة من الملوك والامراء

تتنازع فيما بينها على السيادة ولا تتردد أن تمد يدها الى الاجنبى ليستعين به كل فــرد منهم على تحقيــق مطامعه الشخصية الصغيرة ، على حين كان الاجنبى لا يقصد الى شىء غير اذلال العرب والمسلمين جميعا

وكانت طائفــة أخــرى من الاعيــان تبتز أموال الشعوب المطحونة ، كى تنفقها على حياة ترف دنىء يستل قوة الحيوية ولا يدع للمترف من همة الا التنافس على السيادة المزيفة . فكانوا وهم يحتلون مقاعد السيادة المزيفة لا يشعرون بمذلة اذا هم خضعوا تحت اقدام الاجنبى مادام يسمح لهــم ان يدوسوا شعوبهم المسكينة ويمتصوا دماءها

▱

كان هذا شأن الملوك والأمراء فى عهد صلاح الدين ، كمــا كان فى مطالع القرن العشرين ، على حين كان للشعوب فى الحالين شأن آخر . كانت الشعوب العربية والاسلامية دائما تبــذل ما ابقى السادة المزيفون لهم من دماء واموال وهم اسخياء ، فى سبيل الدفاع عن عروبتهم وعن اسلامهم . ولهذا كان من الطبيعى أن أختار موضوع صلاح الدين فى تلك الآونة ، وفى قرارة نفسى أمنية غامضة : أن تجود الأيام مرة أخرى بمن يثور على ذلك الحاضر الذى كنا نعيش فيه ويرد عنه الموجة المظلمــة الثانية كما رد صــلاح الدين تلك الموجة المظلمــة الاولى !

وها هى ذى الاحلام والامانى تلتقى بالحقائق ، كأنها كيان

واحد بعد مرور هذه الحقبة بين طبع هذا الكتاب للمرة الاولى وطبعه للمرة الثانية ، وكان الزمان الذى يفصل بين الموقفين قد تضاءل أو انمحى

هذه هى الأمة العربية تنبض بالحياة وتهب من رقدتها ، وهذا هو ظل الاستعمار ينحسر عن أرضها فى موجة هائلة تشبه الموجة التى انحدر بها عليها . ثم هذا بطل بل ابطال ينهضون فى صفوف الأمة العربية ـ جمال وصحبه فى مصر والقوتلى وصحبه فى سوريا ، ليكتبوا فى التاريخ صفحة جديدة لا تقل روعة ولا مجدا عن الصفحة التى كتبها صلاح الدين من قبل

نقول ان التاريخ أعاد نفسه ! قد يكون هذا صحيحا اذا نحن نظرنا اليه من ناحية الجوهر وأبعدنا عن الصورة حواشيها وأغراضها ، فنحن اليوم حيال حركة جهاد حديثة تشبه فى جملتها حركة الجهاد القديمة . غير أن العصر الحاضر يختلف فى أوضاعه وفى مفهوماته عن القرن الثانى عشر الذى انجب صلاح الدين

كان الملوك والامراء عند ذلك يستطيعون أن يعملوا لانهم كانوا أصحاب القوة ومصدر السيادة . كانوا يستطيعون أن ان يعملوا للخير أو للشر على حد سواء . وكانوا يحققون اغراضهم مستعينين بالجنود المرتزقة أو المماليك . واذا كان الاخيار منهم يستندون الى تعضيد عواطف الأمة كما فعل صلاح الدين ، فان العصر لم يكن يعرف أن الشعوب هى

من اجل هذا وجد صلاح الدين نفسه حيال ملوك وأمراء يحولون بينه وبين تحقيق ارادة الشعوب التى كانت تتوق الى الوحدة ، وتتوثب من أجل المشاركة فى الجهاد . وكان هؤلاء الامراء لا يترددون فى أى شيء حتى الخيانة للاسلام والعروبة ، اذا كان ذلك يحقق لهم المحافظة على مصالحهم الخاصة وسيادتهم . فلم يجد صلاح الدين بدا من أن يلجأ الى تحقيق الوحدة عن طريق السيف حتى يجمع الامة العربية والاسلامية كلها فى صف واحد من أجل الجهاد . فبحد السيف وحد صلاح الدين سوريا ومصر ، وبحد السيف تمت على يديه الوحدة بين الشرق والغرب الاسلاميين . ولكن العصر الذى نعيش فيه اليوم يعترف اعترافا صريحا لا لبس فيه ، بأن الشعوب مصادر السلطان وان ارادة الشعوب هى مادة القانون الذى تسير عليه الدول . ومن أجل هذا كان توحيد مصر وسوريا وليد رغبة الشعبين ، ومن أجل هذا أيضا ستمضي الشعوب العربية جميعا فى تحقيق وحدتها لانها لا تستطيع أن تتنازل عن تحقيق سيادتها وسلطانها

وانه ليحق لى ، كما يحق لأبناء جيلى الذين شهدوا ما كانت عليه حال الامة العربية فى مطالع هذا القرن العشرين ، والذين كانوا يرفهون عن مشاعرهم المكدودة بأحلام الماضى ورؤى المستقبل ، يحق لهؤلاء أن يكونوا سعداء اذ كان من حظهم أن

يشهدوا الصورة ماثلة فى الحقيقة بعد ان كانوا يلتمسون ايناسها ومواساتها فى مسارح الخيال

محمد فريد أبو حديد

ابريل سنة ١٩٥٨



الفصل الأول

مباحث تمهيدية
لتاريخ صلاح الدين وعصره

دعوة الاسلام ونضاله مع الامم

قام دين الاسلام فى صحراء العرب ثم نما وزاد حتى شمل كل الجزيرة فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وجعل ينشر جناحيه كى يظل بهما ما يليه من أمم الارض من قبل المشرق والمغرب

وقد وجد الاسلام من العرب عدة واستعدادا، فجعل سيلهم يتدفق على ما جاوره من البلاد ، فاجتاح فارس وهبط على ما يليه من بلاد الروم حتى أقام دولة فتية لم يشهد مثلها التاريخ الا قليلا ، فبلغت فى نحو تسعين سنة اتساعا لم تبلغه دولة الروم فى قرون طويلة . وكان من أسباب انتصار هذه الدولة الفتية تلك الحماسة الدينية العجيبة التى لم يذكر مثلها التاريخ لشعب آخر من الشعوب ، حماسة قائمة على عقيدة كالصخرة لا يدخل اليها شك ولا يضعف من سورتها ظلم ، بل كانت عقيدة حرة ثابتة . فشهد العالم نوعا جديدا من أنواع الدولة يقوم على الجهاد فى سبيل العقيدة الدينية ، فلا تقوى دولة من دول الارض على الوقوف فى وجهها . وكان ذلك أول عهد جديد طلع على العالم المعروف

وسارت دولة الاسلام بعد ذلك قدما فى سبيلها فهدأ تيار

الفتح بعد حين وجعلت أمورها تستقر وأخذت تلتمس المدنيه من وجوهها ، فنقلت مانقلت عن دول سبقتها مثل فارس ومصر وأنشأت لنفسها فوق ذلك مدنية طريفة صبغتها بصبغتها . حتى اذا كان أواخر القرن السابع بعد الميلاد (النصف الاخير من القرن الاول للهجرة) صارت دولة الاسلام (دولة بنى أمية) هى دولة العالم الكبرى ، وكان الى جوارها فى أوروبا دولة الروم الشرقية من قبل آسيا الصغرى

وكانت أوروبا فى هذا الوقت قد طرأ عليها تغير كبير من حوادث ذات بال وقعت بها منذ أواخر القرن الخامس للميلاد — قبل الهجرة بنحو قرن ونصف — وذلك أن دولة الروم العظيمة الغربية بلغت شيخوختها وضعفت، وجعلت امم من المتوحشين تغير عليها من سهوب الشرق المجاورة لبحر قزوين وما اليه ، فما زالت تلك القبائل الهمجية تصدعها حتى تصدعت وتفككت وسقطت وآلت رومة العظيمة عاصمة العالم الى يد الفاتحين من قبائل القوط . ومن ذلك الوقت ضاع أمر دولة الروم الغربية وتقسمت أرضها بين المغيرين فأخذت قبائل الفرنج (الفرنك) بلاد غالة (فرنسا الحالية) ، وهبط (الوندال) ثم قبائل القوط الغربية فى اسبانيا حيث ظل حكمهم أكثر من قرنين الى أن أتى العرب فقاموا على أنقاض دولتهم هناك . ثم استقرت دولة القوط الشرقية فى ايطاليا ، وبذلك صارت مدنية الدولة الرومانية الى تلك الايدى الخشنة فما لبثت أن ذهب رواؤها وأصبحت أثراً بعد عين

على أن العالم الغربى قدكسب شيئا وان فقد مدنيةالرومان، وذلك أن الشعب الرومانى القديم كان قد بلغ مرتبة الشيخوخة والضعف وكان لابد له من الفناء فى نضال البقاء ، فلما غلبت عليه تلك القبائل المتوحشة واختلطت به دخلت فى دين المسيح وأدخلت على شيخوخة الشعب الرومانى فتوتهـا وخشونتها وبداوتها . فدخل دم الشباب من هذه القبائل الى الشعب القديم وعادت اليه قوة حيوية كبرى وبقيت المدنيـة القديمة محلا للتقديس ولو أنها كانت غير مفهومة ولا مدركة ، وكان الدين المسيحى الذى اشترك فيه الشعبان القديم والحديث علاقة متينة زالت بواسطتها الفوارق تدريجا حتى اذا ما أتى القرن الثامن بعد الميلاد (القرن الثانى للهجرة) كانت عوامل الاختلاط قد أتت بنتائجها وأصبح الشعب القديم غير ظاهر وحده بل صار النـاس خليطـا من الشعب القـديم والشـعوب الهمجية ، وبدأت كل جهة تمتاز عن الاخرى لهجة وعادات وطبائع بحسب السنة الطبيعية لاختلاف البيئات ولهجات القبـائل المختلفة ، وبذلك وضع أساس أمم أوروبا الجديدة

▱

عظمت بعد ذلك دولة العرب فى مدة العباسيين حتى صارت أعظم دولة فى العالم مجدا ومدنية وقوة ، ولكن انفصلت عنهـا أجزاء قامت منها دول فتية أخرى أكبرها دولة الامويين بالاندلس يحكمها أبناء عبد الرحمن الأموى الذى هرب من العباسيين الى الغرب ، وعبر البحر وكون دولة مستقلة فى شبه جزيرة الاندلس

ينافس بها أعداء أسرته العباسيين ،وعلى هذا كان للعالم المسيحى فى القرن الثامن للميلاد جبهتان يتقابل فيهما بدول الاسلام :

١ ـ الجبهة الاولى الدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها فى القسطنطينية ، وهى تتاخم دولة العباسيين عند آسيا الصغرى

٢ ـ والجبهة الثانية حطام الدولة الرومانية الغربيـــة التى استولى الهمج على أنحائها وكونوا فيها الدول الجديدة البدوية، وكانت الدولة الاسلامية القريبة من تلك الجبهة دولة الاندلس

على أنه قد بدأت فى أوروبا فى القرن الثامن للميلاد حركة ترمى الى توحيد الدول المسيحية ، واعادة انشاء دولة واحدة عظيمة شبيهة بدولة الروم الغربية القديمة

وكان قوام تلك الدولة الجديدة شعب الفرنج تقوده أسرة من نسل القائد الفرنجى شارل مارتل صاحب الانتصار على العرب فى وقعة « تور » سنة ٧٣٢ بعد الميلاد،وهو الذى تعده أوروبا الغربية حاميا لها من سيل العرب الجارف الذى كان يهـددها من الاندلس

بلغت تلك الدولة شأوا كبيرا فى أيام الملك شارلمان أو شارل الكبير حفيد شارل مارتل ، ويمكن أن تعتبر دولته اعادة لسيرة الدولة الرومانية القديمة مع فارق عظيم يجب ألا ينسى وهو أن تلك الدولة الجديدة كانت فى الواقع دولة فرنجية أى أن قوامها كان من الفرنج سلالة الهمج الذين اشتركوا فى هــدم الدولة الرومانية الغربية منذ ثلاثة قرون ، فكانت دولة متسعة عــلى رأسها حكومة واحدة ويحاول ملكها العظيم أن يجعلها شبيهة

بالدولة الجليلة القديمة فى نظامها وان كان لا يستطيع أن يعيد ذلك النور الذى انطفأ على يد أجداده الغزاة الاوائل

فبعد قرون ثلاثة من سقوط رومة استقر العـــالم على حال جديدة ، واصبح فيه دول ثلاث او أربع الا وهى دولة المسلمين ودولة الفرنجة (الامبراطورية الغربية) والدولة الرومانيـــة الشرقية

نقول دول ثلاث او أربع لأن دولة المسلمين فى ذلك الوقت كانت كما قدمنا غير متحدة ، فقد انفصلت بعض أطرافها فكانت دولا مستقلة أكبرها دولة الاندلس ، ولهذا كانت دولة المسلمين فى الواقع دولتين كبيرتين : دولة العباسيين المشارقة ، ودولة المغاربة بنى أمية بالاندلس



علاقة الاسلام بأمم أوربا
منذ القرن التاسع

استقرت تلك الدول بعد ذلك الاضطراب الطويل الذى غير وجه العالم وصارت لها فيما بينها علاقات وروابط • وتبدلت وجهة ما بينها من العلاقة الى ما يكون عادة بين المتجاورين من علاقات معاملة ومنافسة ومنازعة ، ولعل من أكبر ما يسترعى النظر فى حروب المسلمين مع من جاورهم أن لفظ الجهاد كان لا يزال مستعملا • فلا نزال نسمع ذلك الاسم (الجهاد) يعبر به المؤرخ الاسلامى عن حروب العباسيين أمثال هرون الرشيد والمعتصم مع الدولة الرومانية الشرقية ، وكذلك يتردد ذلك الاسم وهو الجهاد فى وصف حروب عبد الرحمن الاوسط مع جيرانه ملوك الفرنج وأمراء القوط بجبال الاندلس

والحق أن ذلك اللفظ وهو الجهاد يجب أن يقصر على العصر الاول من غزوات المسلمين أيام كان القصد الاول من الحروب بث الدعوة الاسلامية فى أنحاء الارض ، فقد كان المسلمون اذ ذاك أصحاب مبدأ جديد وفكرة يريدون أن تسود العالم ، فكان أول شىء فى نظرهم ابلاغ الناس ما عندهم من الدعوة والعمل على أخذهم بها ولو كلفهم ذلك مهجهم • فماكانوا يعبأون

ايحاربون فى صحارى قاحلة أم فى وديان خصبة ، ولا يبالون أنالهم بأس البرد أم حر القيظ فى سبيل ما يدعون اليه. وكان العدو بعد الانتصار يصير صاحبا ، له ما لهم وعليه ما عليهم اذا هو قبل دعوتهم

وما كان لهؤلاء المجاهدين الاولين أن يفرقوا بين جنس وجنس او بين لون من الناس ولون ، بل انهم كانوا يغلبون العدو وهم يرون أنهم يؤدون له أكبر خدمة بابلاغه الدعوة وتمهيد السبيل أمامه الى السعادة الاخروية . فكان شأنهم فى ذلك شأن كل أصحاب الدعوات والمبادىء ، ولكن لقد كان للجهاد عصره ثم انقضت الروح التى كانت تدفع اليه . ثم دخلت دولة الاسلام فى دور حياة مدنية وحلت فى بلاد ذات مجد قديم وسارت فى مواطىء اقدام الأمم الغابرة وأخذت بمدنياتها تدريجا وتكونت فيها حكومات منظمة سلكت فى معاملاتها مع جيرانها سلوك من تقدمها من الدول ، فحلت العلاقات السياسية محل الحماسة الى الدعوة الاسلامية حتى لنجد هرون الرشيد خليفة المسلمين يراسل امبراطور دولة الفرنج ويهاديه ، ولعل ذلك كان التماسا لصداقته نكاية للدولة المتاخمة لدولته نعنى دولة الروم الشرقية . على حين نجد عبد الرحمن الاوسط بالاندلس يراسل امبراطور الدولة الرومانية الشرقية ويهاديه ، التماسا لصداقته ونكاية للدولة المتاخمة له وهى دولة الفرنجة . فهل اذا حارب الرشيد دولة الروم الشرقية أمكن أن نصف تلك الحرب بأنها جهاد من أجل الفكرة الدينية ؟ وهل اذا حارب عبد الرحمن الاوسط

دولة الفرنجة أمكن أن نعد ذلك جهادا بالمعنى الصحيح ونعنى به نشر دعوة الاسلام ؟

الحق أن الدول الاسلامية عندما تكونت واستقرت أصبحت فى تعاملها مع من جاورها من الدول دولة دنيوية لها علاقات ودية فى جانب وعدائية فى جانب آخـــر بحسب ما تقضى به مصلحتها واصبحت فكرة الجهاد المجرد غير حقيقية ، وانمابقى اسم الجهاد مستعملا فى وصف الحروب مع العالم المسيحى سيرا على التقاليد الاولى واعلاء من شأن الدولة بوضعهـــا فى مكان السائر على سنن أهل الدعوة الاوائل الأجلاء ، وتبريرا للحرب واستنهاضا لهمة الناس كى يبذلوا ما يرغب منهم بذله راضين شاكرين . أما من جهة المسيحيين فانهم كانوا فى حروبهم مع المسلمين الى القرن العاشر لا يحاربون لأجل نشر مبدأ دينى بل كانوا يعتقدون انهم اصحاب بلاد يحاولون الدفاع عنها، وعلى ذلك لايمكن أن تسمى حروبهم الى ذلك الوقت حروبا دينية اذ لم يكن لهم قصد من بث دعوة دينية. حقا لقد كان الفرنجة المسيحيون احيانا يقومون بحروب دينية ، ومثل تلك الحروب ما شـــنه شارل الكبير على ما جاور بلاده من سكسونيا الوثنية فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع للميلاد ، ولكن تلك الحروب كانت محلية قليلة الشأن. ويمكن نا نقول بوجه الاجمال أن العالم المسيحى قبل القرن الحادى عشر لم يعرف الحرب الدينية بالمعنى الصحيح ، أو بقول آخر لم يقم بحـــروب صليبية لبث دعوة المسيح فى أنحاء الارض بثا منظما فى دائرة واسعة كما فعـــل

العالم الاسلامى أيام الجهاد الاول ، فاذا نحن جئنا بعد ذلك الى القرن الحادى عشر ورأينا اسم الجهاد يتردد فى أنحاء العالم الاسلامى من نهر دجلة فى العراق الى نهر دورو فى الاندلس والى جانب ذلك يتردد اسم الصليب على طول خط الحدود الفاصلة بين العالمين : العالم الاسلامى والعالم المسيحى ، اذا رأينا هذا عرفنا أن هناك شيئا جديدا وأن عاصفة قد ثارت فأعادت اسم الجهاد يهتف به من جانب المسلمين ،وأثارت اسم الحرب الصليبية يهتف به من جانبالمسيحيين ، فما الذى أثار تلك العاصفة ؟



صريخ القسطنطينية

فى أواخر القرن الحادى عشر وجه امبراطور الدولة الرومانية الشرقية دعوة الى البابا ليدعو أمم الغرب من فرنجة وألمان وانجليز الى نصرة الصليب وتخليص بيت المقدس من أعدائه المسلمين، فوجه البابا دعوته الى أوروبا فسارت فى الشعوب كما تسير النيران فى الهشيم ، وقامت أوروبا كرجل واحد الى الغرض الذى دعى اليه البابا ، فكانت حروب دموية بين الشرق والغرب استمرت ثائرة مدة قرن ثم خبا لهيبها تدريجا بعد ذلك ولو لم تنطفىء ناره جملة . فما الذى جعل امبراطور القسطنطينية يرسل تلك الدعوة ؟ وما الذى جعل البابا يقبلها رغم الحفيظة التى كانت فى قلبه على الكنيسة الشرقية ؟ وما الذى جعل أوروبا تجيب دعوة البابا بهذه الحماسة العجيبة التى بدت منها ؟

لقد كان بين القسطنطينية وروما منذ قرون منافسة ومشاحنة (١) وها نحن نجد القسطنطينية تتناسى تلك الاحن

---

(١) عندما دب الضعف فى الدولة الرومانية شعر أباطرتها منذ القرن الثالث للميلاد بضرورة تقسيم الدولة الى أقسام لغرض حمايتها من غارات المغيرين فتقسمت الدولة فى أيام دقلديانوس الى أقسام أربعة ثم عادت بعده الى وحدتها ؛ فلما كانت أيام الامبراطور قسطنطين شعر بالحاجة الى تحصين=

القديمة وها نحن نرى أوروبا تدوس تلك المنافسة تحت أقدامها وسنابك خيولها ، ويتصافح المسيحيون من الشرق والغرب ويتحالفون على الاسلام

لقد كان الخلاف الذى بين شقى العالم المسيحى خلافا يكاد يمس أساس العقيدة ، فكان المسيحيون فى الشرق يعتبرون المذهب الغربى خرافة على حين كان خليفة القديس بطرس فى روما (البابا) ينظر الى الشرق أنه منشق عنه خارج عليه ، ولكم كان بين الاثنين مواقف عاصفة وتراشق بالالقاب ، بل لقد كان بينهما تنافس حربى ومثل ذلك أن بوهمند (بيمند) ابن روبير جيكار الملك النرماندى على جنوب ايطاليا وصقلية

= الشرق ببناء العاصمة الكبرى التى تشرف على البوسفور فبنى مدينته القسطنطينية فى مكان قرية قديمة اسمها « بوزنطة » وجعل اقامته فيها ، وكان قسطنطين أول امبراطور مسيحى للدولة الرومانية ، ولعل مقامه فى القسطنطينية كان مقصودا به البعد عن رومة العاصمة القديمة ومركز الوثنية وهناك فى القسطنطينية نشأ مركز جديد قوامه الشعب اليونانى والمدنية اليونانية واللغة اليونانية . وعلى مر الايام صارت العاصمة الجديدة تنافس العاصمة القديمة فى كل شىء ، وقد زادت تلك المنافسة عندما تقسمت الدولة الرومانية نهائيا الى قسمين : الدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية، والدولة الرومانية الغربية وعاصمتها رومة وزاد التنافس شدة عندما سقطت رومة فى يد البرابرة فى القرن الخامس للميلاد ، ولم يبق فيها ما يربط الشرق بالغرب ، وعند هذا بدأ البابا يظهر بنفوذه الدينى اذ أصبح هو الممثل الوحيد للمدنية القديمة والشعب الرومانى وأصبح معدودا خليفة القديس بطرس الرومانى ولم يكن خاضعا لسلطة امبراطور الشرق فبدأت الكنيسة الرومانية تقف موقف التحدى والكبرياء أمام كنيسة قسطنطينية وسلطة الامبراطور الشرقى ، ثم انقلب الامر الى خلاف وشقاق وما زال الخلاف ينمو حتى كانت بين البابا والامبراطور فى القرون السادس والسابع والثامن مواقف عاصفة على أثر خلاف فى الجدل المذهبى فكان يخيل الى من يرى ذلك أن الدين المسيحى قد شطر شطرين لا يمكن التئامهما .

عبر البحر الادرياتى ، وجعل يغزو أرض الدولة الشرقية بتحريض سيده البابا صاحب ولائه

ولكن تلك الفروق وتلك المنازعات لم تقف أمام التيار الجارف الذى اجتاح أوروبا ، فنسيت كل العداوات القديمة وسويت الحزون وتعانق أبناء المذهبين حتى ان بوهمند ذلك الامير الذى غزا أرض الدولة الرومانية الشرقية صار أحدالقواد الكبار الذين ذهبوا الى القسطنطينية لنصرة كلمة المسيح

اما هذا الانقلاب الذى طرأ على سياسة الدولة الشرقية وجعلها تطلب مساعدة البابا فيمكن كشفه من تتبع علاقة تلك الدولة بالدول الاسلامية اجمالا منذ القرن الثامن للميلاد. فقد كانت الدولة العباسية فى القرن الثامن للميلاد فى عنفوانها فسلبت جارتها الرومانية كثيرا من أملاكها ، فلما انشغل العباسيون بمشاكلهم الداخلية أمكن دولة الروم أن تبقى ثابتة الحدود عند شرق آسيا الصغرى ، ثم مضت قوة الدولة العباسية وذهب أمثال المهدى والرشيد والمأمون وتلا ذلك استبداد جنود الاتراك بالخلافة العباسية فأخذت الدولةتضعف فى نضالها الخارجى،وزادها ضعفا أن انفصل عنهاكثيرمن البلاد التى بدات تستقل كالاغالبة والادارسة فى افريقية،وأخيراجاءت الضربة القاسية وهى استبداد بنى بويه الشيعيين بأمر الخلافة، فأصبحوا وزراء فى الاسم ولكنهم كانوا المسيطرين على الامر كله .وكان الخليفةأحيانا يحاول أن يثبت لنفسه أمرا فكان يحدث من وراء ذلك تشاحن وتنازع بينه وبين الوزير ، فاضطربت

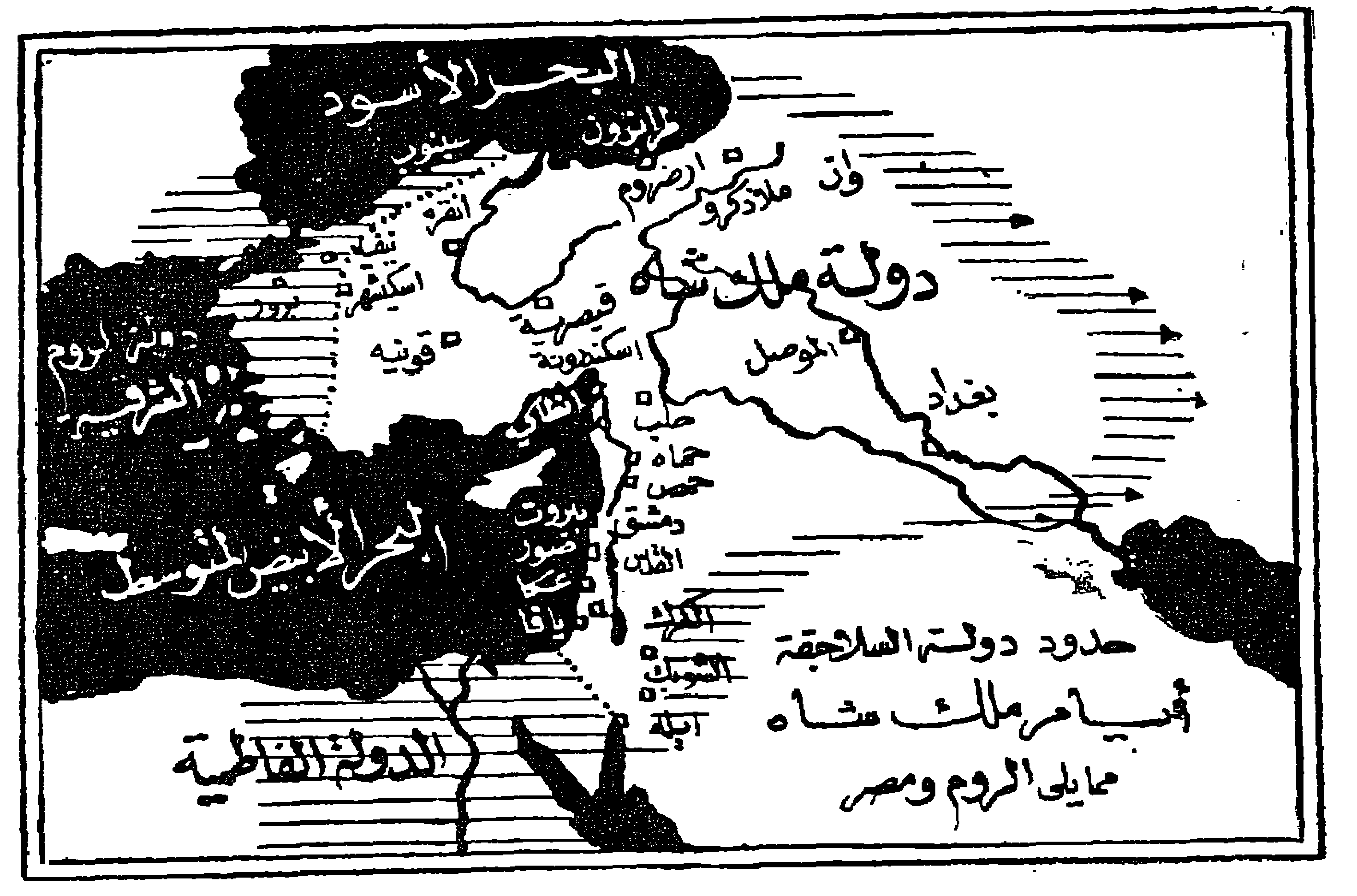
أمور الدولة الاسلامية وتفرقت كلمتها وانفجر جثمانها فصار اجزاء متناثرة من امارات فى فارس وخراسان واخرى فى الشام وسواها فى مصر • وهكذا وجدت الدولة الرومانية دونهـا فرصة سانحة فانتهزتها وأثار أباطرتها حربا طاحنة لاسيما أيام نقفور (نيقفراس فوكاس) و (حنـازيمس) (جون سيميسز) بين عامى (٩٦٠ ـ ٩٧٥) بعد ميلاد المسيح ، فلم يستطع أمراء الحمدانيين الذين كانوا على حدود دولة الروم أن يثبتوا فى ذلك النضال ، بل أخذتهم كتائب الدولة الرومانية بما لا قبل لهم به ، ثم فتحت سواحل الشام وعبرت جنـود الروم نهر الفرات وكانت على طريق بغداد ، وذعر الخليفة المطيع حتى لقد باع عليه الامير البويهى أثاث قصره ليستعد بثمنـه للحرب • ولكن لحسن حظ دولة الاسلام رجعت عند ذلك جيوش الروم وانقضت تلك الموجة ولم تحطمها • كان هذا فى القرن العاشر ثم طلع القرن الحادى عشر بحظ غير هذا ، وكان الامر ككفتى ميزان اذا رجحت كفة شالت الاخرى

فى القرن الحادى عشر استولى على بغـداد قوم من الترك ، وهم السلاجقة وكان أميرهم طغرل بك رجلا من أهل السـنة شجاعا ، غير مأخوذ بالالقاب ، كما كان ملوك البويهيين. فحفظ على الخليفة جلاله وهيبته ظاهرا وأخذ فى يده أمر الدنيا يتحكم فيها بسيفه وارادته فعلا وباستيلاء السلاجقة على بغداد سـنة ١٠٥٥ بعد الميلاد (٤٤٧ للهجرة) دخلت الدولة الاسلامية فى

دور غير الدور الذى مر بها فى أواخر القرن العاشر

فقد استعادت على يدهم قوة شبابها ، أو ان لم يكن ذلك فقد عاد جيشها على الاقل الى سيرة الفتح والانتصار الذى نسيته الدولة فى آخر أيام بنى بويه ، وقد توالى على أمر الدولة العباسية ملوك ثلاثة عظام من السلاجقة وهم طغرل بك والب أرسلان وملك شاه ما بين سنتى ١٠٥٥ و ١٠٩٢ (٤٤٧ ـ ٤٨٥ هجرية) ، وكانوا فى سياستهم الداخلية مع الخلافة قانعين بالسلطان الدنيوى الفعلى تاركين كل مظاهر الرياسة والسيادة الاسمية للخلفاء من البيت المبجل الذى له المكانة السامية فى قلوب المسلمين وهو بيت بنى العباس

وأما فى سياستهم الخارجية مع من جاورهم ، ولاسيما دولة الروم الشرقية ، فقد كانوا لا يقنعون بسوى السيطرة والغلبة فبدأت جيوشهم من جبال طوروس وأرضروم، وما زالت تنحدر الى الغرب فى وديان آسيا الصغرى وهضابها ، وهناك شهدت مدينة قيصرية جيوشهم الغالبة، ثم خضعت بلاد أرمينية والقوقاز بعد دفاع لم تستطع الثبات عليه ، ثم كانت بعد ذلك موقعة (ملاذ كرد) بين أرضروم و (وان) سنة ١٠٧٢ وكان هناك الانتصار الذى لا يزال يذكر للسلطان آلب أرسلان ، وأخذ الامبراطور الشرقى (رومانوس) أسيرا وهو جريح بعد دفاع بطل مستميت ، وقد سار ملك شاه بن ألب أرسلان على سنة أبيه بعد مقتله وزاد على الحرب مع الروم حروبا آخرى مع ما يليه من البلاد ، وكان من بينها بلاد الشام التى كانت لا تزال فيها



خريطة دولة ملك شاه

بقية من حكم الفواطم وما كان عام ١٠٩٠ حتى كان ملك شاه يطأ بحدوده الشرقية أكناف الصين ويدوس بحدوده الغربية عواصم الفواطم والرومان من قبل الشـــام وآسـيا الصغرى وتكونت دولة السلاجقة فى أحشاء هضبة الاناضول وأملى ملك شاه ارادته على من يليه ، وكان من بين من يرتجفون من خوفه الامبراطور الكسيوس امبراطور الدولة الرومانية الشرقية

وكانت تلك الحروب ولا شك حروبا لا يقصـد بها سوى مد السلطان والغلبة ـ فان السلاجقة كانوا قوما محاربين أتوا من أواسط آسيا فما زالوا يحاربون أمراء المسلمين الى أن دانت لهم بغداد، ثم مازالوا يحاربون بعد ذلك من أجل فتح سائر ما يليهم من الاقاليم وكانت تلك الاقاليم التى تليهم فى أيدى الرومان على الاكثر ولو أنها كانت فى أيدى سواهم لحاربوهم ولو كانوا من أمراء المسلمين

وقد سببت تلك الحروب كما تسبب الحـروب فى كل عصر عداوة بين الجانبين المتحاربين فحدثت حوادث لا يخلو من مثلها وقت مضطرب مثل ذاك الوقت، وما كانت تلك العداوة ومانشأ عنها من الحوادث لتأخذ صورة خاصة فى التاريخ لولا ما وقع بعدها من الحوادث الجليلة التى هزت العالم أجمع

بينما كان الكسيوس يفكر فى طريق يخرجه من حرج موقفه أمام ملك شاه اذا بالموت عدا على عدوه المخيف وتمزقت بموته دولة السلاجقة التى بناها ثلاثة من ملوكهم العظـام ، وهناك تنفس الامبراطور وكان رجلا من رجال الدهاء والاحتيال فرأى أن ينتهز فرصة انثلام ذلك الهيكل العظيم الذى الى شرق بلاده

فيحطمه ليامن غائلته فارسل الى فتية فى أوروبا معودين الحرب كى يأتوا ليعيدوا له ما فقدته دولته متناسيا ما كان بين الغرب والشرق فى العالم المسيحى من منافسة وخلاف وكانت الظروف مساعدة له فرأى أن يلبس الحقائق لباسا يجعله يستفيد منها،

فصور المسلمين أنهم قوم أتوا الى بلاده لا يقصدون الا حربا دينية يهدمون بها ديانة المسيح. وعزا ما ارتكبه الجنود السلاجقة من الاعتداء على المسيحيين فى الشام وآسيا الصغرى الى رغبة كمينة فى نفوسهم فى أذى النصارى ، وساعد على اذاعة أمثال هذه المزاعم جماعة من المتحمسين أمثـال بطرس الراهب الذى ثارت نفسه عند ما رأى قبر المسيح فى يد السلاجقة الظافرين وهم حديثو العهد بظفرهم. وهكذا سمعت أوروبا نغمة لم تطرق أذنها من قبل : دعوة الى نصرة المسيح على المعتدين المسلمين . وما هو الا أن صرخ الكسيوس حتى أجيبت الدعوة بثورة هزت أرجاء العالم فلقد أرسل الى البابا (اربانوس الثانى) وهو فى مجلس دينى فى (كليرمون) سنة ١٠٩٥ يدعوه الى نصرة المسيح واسترداد بيت المقدس من السلاجقة فما انفض ذلك المجلس حتى نادى البابا نداءه التاريخى الذى دوى فى أنحاء أوروبا . وانطلق المتحمسون فى أنحاء البلاد يصورون الاسلام ظالما عاتيا مغيرا ولم تكن حكايتهم خالية من الحقيقة ولكنها كما قدمنا كانت حوادث طبيعية فى عصر ثارت فيه ثائرة الحروب بين متنافسين قديمين ، على أنه لم يكن أحد ليمحص تلك الحجج التى أوردها أمثال بطرس الراهب فثـــارت العاصفة هوجاء تخبط خبط عشواء

لماذا لبت أوربا الدعوة ؟

اذا كان الكسيوس قد تناسي ماكان بين دولته وبين الغربيين، فأعجب من ذلك أن يأتى الغرب الى مساعدته بتلك الحماسة العظيمة ، فالحق أن أوروبا فى هذا الوقت كانت مستعدة أعظم استعداد لايقاد النيران وكان البابا والكنيسة همـا الطريقان الوحيدان الى اثارة تلك النيران وقد عرف الكسيوس أن يلمس المكان الذى فيه سر الانفجار

كان الدين فى القرن الحادى عشر سيد أوروبا ، وكان رجال الدين وعلى راسهم البابا فى ذلك القرن أصحاب عواطف أهل أوروبا ، وكان فى أوروبا فى ذلك الوقت رجال يحبون الحـرب ويعيشون له ولا يسعهم الا تلبية الداعى اليه ولا سيما اذا كان لنصرة الدين . وذلك كله يرجع الى أسباب لابد من بيـانها موجزة فى الفقرتين الآتيتين :

(١) الانقلاب فى نظام أوروبا

حدث انقلاب عظيم فى نظام الدولة الفرنجية فى أواخر القرن التاسع للميلاد ، وذلك أن شارل الكبير كان قد أقام دولة عظمى تشمل أكثر بلاد الدولة الرومانية القديمة ثم خلع البابا عليه لقب الاباطرة واصبح لقبه امبراطور الدولة الرومانية الغربية ،

وقد حاول شارل أن يجعل دولته على نظام شبيه بنظام الدولة الرومانية القديمة واكبر ما كان يرمى اليه جعلها دولة واحدة وان يكون هو على راسها ومركزها . ولقد كان تحته طائفة من الحكام والرؤساء ، ولكنه عمل على أن يكونوا عمالا له مؤتمرين بأمر الحكومة المركزية ثم سار ابنه (لويس التقى) على مثل ذلك بما استطاع ، لكنه لم يكن كأبيه دراية وكياسة وقوة ، فما هو الا أن مات لويس حتى تقسمت الدولة الرومانية الغربية الى اقسام ثلاثة بين اولاده ، وبدأت بذلك أول حلقة من سلسلة تقسم لبث يحطم تلك الدولة الى آخر القرن التاسع للميلاد

وقد كانت أوروبا فى ذلك القرن التاسع مهددة بأخطار جسيمة من تجدد اغارات القبائل المتوحشة واكبرها عند ذلك قبائل النرمانديين والمجريين زيادة على ما كان يصيبها من غزو العرب فى الاندلس وصقلية وجنوب ايطاليا برا وبحرا ، وقد كان لهذه الغزوات أثر بعيد المدى

كان النرمانديون يغيرون على الدولة الرومانية فى خفاف السفن من مصبات الانهار لانهم كانوا قوما من بلاد الشمال وشواطىء البحار لهم جراءة على المحيط ودراية بتسيير السفن وكانت اغاراتهم للسلب والتدمير ولا تستطيع دولة الرومان الغربية أن تدفعهم عن نفسها اذ لم يكن فيها مدن حصينة ولا كتائب سريعة ، وكان المجريون فى اغاراتهم فرسانا يجتاحون البلاد ثم يعودون بعد أن يسلبوا ما شاءوا ولا تردهم

حصون ولا أسوار،ولم يكن دونهم عند الفرنج كتائب ذات دراية بحركات الفرسان ، ولهذا استقر رأى أمراء الدولة الرومانية الغربية على أن يعنوا بأمرين لا غنى للدولة عنهما اذا شاءت حماية نفسها من أعدائها ، وذانك هما : بناء الحصون الكثيرة والاسوار على المدائن من جهة ، ومن جهة أخرى تكوين كتائب للفرسان معودة الكر والفر على أسلوب سريع كى يستطيعوا دفع عادية المغيرين السريعين . وبذلك وجد أمراء الدولة أنفسهم بعد حين ولهم حصون وأسوار تحميها كتائب من الفرسان مدربة خاضعة فكان لكل منهم بذلك دائرة خاصة به عليه حمايتها وله بطبيعة الامر ادارتها فنما نظام جديد عرف فيما بعد فى القرن العاشر وما يليه بنظام الاقطاع

▱

أحدث نظام الاقطاع نقضا فى أساس الحكومة القديمة التى كانت فى أوروبا منذ أيام الدولة الرومانية الأولى وذلك أن الحكومة المركزية أصبحت صورة لا حقيقة واصبح الامراء هم أصحاب الحكم فى جميع الانحاء ، وصارت العلاقة الجديدة بين طبقات المجتمع قائمة على أساس التعاقد بعد ان كانت قائمة على أساس السلطة والسيادة يعنى أنه أصبح بين الامراء من جانب وبين الحكومة المركزية من جانب آخر عقد يتعهد فيه كلا الجانبين تعهدات يقوم بأدائها نظير حقوق يكتسبها وكانت اكبر واجبات الامراء الاشتراك فى حروب الدولة بانفسهم وفرسانهم وامداد الحكومة المركزية بشىء من الاموال . وكانت اكبر

حقوقهم ان يكونوا حكاما يخضـــع لهم من دونهم من الامراء ويدفعون لهم الضرائب ويشتركون فيمـــا يكلفهم به صاحب ولائهم من الاعمال ، وكان كبار الامراء متعاقدين مع صغارهم - على شروط شبيهة بتلك ، وهكذا كان هؤلاء مع من يليهم فكان نظام الاقطاع أشبه شيء بالهرم رأسه الحكومة المركزية وقاعدته صغار الامراء والفرسان ثم الشعب ، وكان الشعب العـــام مرتبطا بواجبات نحو الامير الذى يحكم بلاده فيدفع الاموال اليه ويخضع لقضائه ويهب له مقدارا معينا من العمل فى أرضه فى نظير حماية الامير له من اعتداء الغير وصد غارات المتوحشين عنه

على هذا انقسمت أوروبا الى أقسام صغيرة من الاقطاعات وكانت الحكومات المركزية فى الواقع لا علاقة لها بالافراد بل كانت علاقتها بكبار الامراء تارة على سلم وتارة على حرب

▱

مضى القرن العاشر وفى أوروبا دول ثلاث كبرى كل منهـا مقسم بحسب ذلك النظام الاقطاعى وتلك هى ألمانيا ويحكمها حكام من امرائها بعد انقراض أسرة الفرنجة من نسل شارلمان وكانت دولتهم مكونة من ألمانيا وايطاليا واسمها الدولة الرومانية المقدسة ، ثم فرنسـا ، ثم انجلترا

ولم تكن تلك الدول دولا بالمعنى الحقيقى اذ كان الحكام السياسيون لا يتعدى حكمهم اقطاعاتهم وكثيرا ما كان الامير اذا لم يجد ميدانا للحرب يصـــد فيه غارات الاجانب أو

المتوحشين يغير على من يليه من جيرانه ولهذا كانت أوروبا فى ذلك الوقت وما بعده مجالا لحروب لا عد لها ولا حصر بين بعض الامراء وبعض ، ولم تخل الحكومات المركزية من مناواة امرائها بل كانت تدخل فى ميادين حروبهم مؤلبة جماعة على اخرى تنتصر تارة وتنهزم اخرى

وهكذا عاد نظام الاقطاع على أوروبا بمنافع واضرار فقد رد عنها غارات المجر والنرمان وأمثالهم ولكنه نزع أمنها واطمئنانها فى الداخل وجعلها بؤرة حروب دائمة

فى ذلك الوقت اتت دعوة الدولة الشرقية فما كان أسرع امراء اوروبا وفرسانها الى الاجابة ملتمسين هناك ميدانا جديدا للحروب

(ب) روح العصر فى أوروبا

كان عهد الاقطاع بطبيعة ظروفه عهد الفروسية وما يتبع هذه الصفة من مميزات فكان الامير بحكم تعاقده حاميا لمن فى كنفه يرى نفسه سيدهم المسئول عن سلامتهم ولو كلفه ذلك بذل نفسه . وقد جرت العادة مدة طوال السنين على تقاليد صارت على مضى الزمن مبادىء يجب على الشريف أن يسير على مقتضاها ، فكان من مجموع ذلك قانون به تفاصيل ما يحل للشريف أن يعمل وما يحرم عليه وكانت تلك المبادىء ترمى الى حماية الضعفاء ونصرة الدين واجلال الجمال والوداعة وسوى ذلك من صفات الحسن الذى يتجلى فى المرأة، فكانت الشجاعة اولى صفات الشريف لا تقوم عنها صفة أخرى ، وكان استخدام



محارب من القرون الوسطى

(عن كتاب ستانلى لين بول)

السيف من اول ما يجب عليه اتقانه الى جانب المهارة فى ركوب الخيل وأما الرماية بالقوس والسهام فكانت مما يترك للمحاربين فى المحل الادنى

وقد شهد القرن العاشر تغيرا جديرا بالذكر فى عقول أوروبا اذ قد مضت اظلم القرون مع القرن التاسع وبدات حياة جديدة تدب الى النفوس ولو انها لم تكن تلك الحياة الفياضة التى تمشت فى العروق منذ القرن الثالث عشر . وقد بدأ دبيب تلك الحياة يظهر بشىء من الجلاء فى القرن الحادى عشر وكانت اولى علاماتها تلوح هنا وهناك اما فى بلاط ملك واما فى حنايا دير

بدات الامم الفتية تتطلع الى الماضى وترى انفسها حفدة الرومان اصحاب المدنية القديمة فجعلت تلتمس العلم من بقايا مخلفاتها ووجدت معلمين لها من رجال الدين الذين كانوا لا يزالون يحتفظون ببعض علم القدماء فانصبغت تلك النهضة الصغيرة بصبغة رجال الدين . ولما تفتحت العقول أول ماتفتحت للمعارف وجدت الميدان الذى فتح دونها مصبوغا بصبغة الدين ، فكانت حماستها الشبيهة بحماسة الطفولة تدفعها الى الاهتمام بكل ما يمس الدين حتى لقد ظهر اثر هذا فى آداب العصر الذى يتكون من قصص العهد القديم والحديث ممثلة فى قالب روائى وكان الممثلون فى الغالب من القسس

ولعل تسلط الكنيسة فى ذلك العصر كان قصارى ماوصلت اليه من التسلط على قلوب الناس ولما يحرفهم عن عقيدتهم شىء من

زيغ العلم او شك الفلسفة حتى لكان أكبر عقاب يقع على الفرد حرمانه من الكنيسة واخراجه من دائرة الايمان والمؤمنين وهو عقاب اذل أكبر راس فى العالم اذ ذاك وهو الامبراطور نفسه. وكان ذلك الحرمان اذا وقع على اقليم تعطلت شعائر الدين فيه فلم يجد الناس من يأخذ اعتراف الميت ولا من يقرأ عليه الصلوات التى توصله الى الآخرة، وكان مثل ذلك العقاب كافيا لارغام اكثر الامراء عنادا واذلال أحدهم شوكة . وكانت الكنيسة اذا فرضت على الناس فرضا يكفرون به عن ذنوبهم لم يسعهم الا الاذعان ، فيصوم الفرد أو يضرب أو يذل نفسه بالسؤال أو يشهر به ويخرج من بلده فى زى النادم « قبعة خاصة وعصا طويلة واقدام عارية » فيذهب الى بيت المقدس أو الى روما ليمحو ذنوبه

وقد كانت الكنيسة عاملا من العوامل الفعالة طوال القرون الوسطى (١) وزاد نفوذها فى العصر الاقطاعى اذ كانت هى المحكمة فى منازعات المتنازعين ، ترأب الصدوع وتداوى الجروح وتجعل للناس قواعد لحرامهم وحلالهم فى الحرب ، تحاول بذلك تخفيف ويلاتها . وكانت سلطتها لا تقف عند حد اقطاعى ولا دولة معينة بل تشمل جميع اتباع المسيح المؤمنين بها فى وقت لم يكن هناك مركز سياسى قوى لانفراد كل امير باقطاعيته

---

(١) القرون الوسطى اصطلاح تاريخى يتصد به الفترة بين سقوط مدينة روما فى أيدى البرابرة سنة ٤٧٦ للميلاد وبين بدء التاريخ الحديث الذى يوضع حده عند سقوط القسطنطينية فى يد الاتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ للميلاد

مستقلا بأمره ــ وعلى ذلك كان سلطان الكنيسة هو السلطان العام الوحيد الذى يشمل جميع انحاء أوروبا

وقد اتفق فى أواخر القرن الحادى عشر حدوث نضال كبير بين الامبراطورية (السلطة الدنيوية) وبين الكنيسة (السلطة الدينية) وكانت نتيجة ذلك النضال انتصارا باهرا للبابا، وذهب الامبراطور العظيم وهو اذ ذاك « هنرى الرابع » الى البابا « جريجوار السابع » فى قرية « كانوسا » بايطاليا وهناك وقف حاكم الدنيا اياما ثلاثة عند باب رئيس الكنيسة عارى الرأس حافى القدمين يطلب العفو والصلح

وعقب ذلك بسنين قليلة كان البابا « أربانوس » فى مجمع من رجال الكنيسة فى « كلرمون » فأتاه صريخ امبراطور الدولة الشرقية يدعوه للمساعدة فى حرب المسلمين . فما انفض ذلك المجلس سنة ١٠٩٥ م حتى كان البابا قد اعلن حربا لنصرة المسيح والصليب على المسلمين واستنقاذ بيت المقدس منهم ، فأية صيحة تكون صيحة البابا فى مثل هذا العصر ؟ لقد كانت صيحة ترددت كالرعد القاصف وسارع الى تلبيتها شعب مؤمن مطيع على رأسه طائفة من الامراء الذين لهم دراية بالحروب وبهم غيرة على الدين ورغبة فى نصرته

انتصار الصليبيين

بدات الحرب الصليبية فذهبت جموع بعد جموع فى سنة ١٠٩٦ (٤٨٩ هجرية) ولـكنها لم تتم شيئا ثم تبعتهـا جموع اخرى فى سنة ١٠٩٧ بقيادة أربعة من كبار امراء أوربا وهم (جودفرى) حاكم بولونى و (ريمون كونت طولوشه) و (بالدوين) أخو (جودفرى) و (بوهمند) ابن (روبير جيكار) النرماندى حاكم جنوب ايطاليـا وصقلية . وكان يساعدهم آخرون من الاشراف والفرسان ، فلما بلغت الحملة القسطنطينية استوثق الامبراطور الـكسيوس من حلفـائه انهم يردون اليه ماسلبه الاسلام من بلاده ، ثم سمح لهم أن يجتازوا بأرضه فساروا وعبروا المضائق وهزموا المسلمين فى الاناضول وكانوا أشتاتا بعد ذهاب ملوكهم الكبار ، وكان أكبر انتصار للصليبيين عنـد (دور يليوم) أو (اسكيشير) فى غرب آسيا الصغرى . ثم مازال النصر لهم الى أن أتموا السير وبلغوا الشام واقاموا دولا اربعة اقتطعوها من ارض الاسلام وهى (الرها) و (انطاكية) و (طرابلس) و (بيت المقدس) وجعلوا الملك فى يد حاكم بيت المقدس وهو (جودفرى) وقنع الباقون من الامراء بالولاء له حسب النظام الاقطاعى فى أوروبا

وجعلوا نظام الحكم فى تلك البلاد على الاسلوب الاقطاعى . وتم ما ارادته اوروبا ، وردت موجة الفتح الاسلامى عن اسوار القسطنطينية بتلك الضربة الشديدة ، ولم تعد الدول الاسلامية الى محاولة فتحها من جديد الا بعد أن تفيق منها وذلك بعد نيف وثلاثة قرون على يد الاتراك العثمانيين



الفصل الثاني

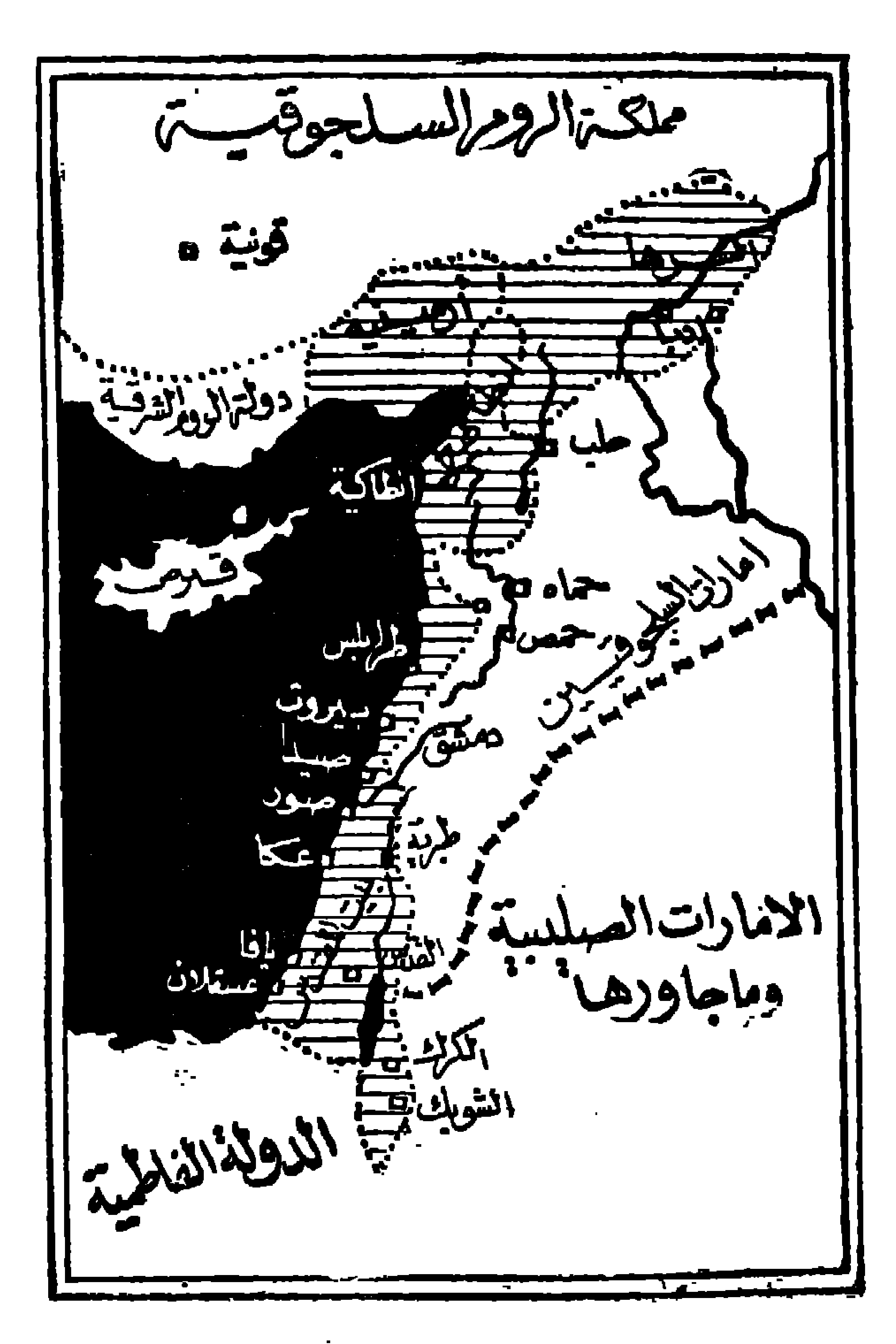
ظهور صلاح الدين

العالم الاسلامى يستجمع قوته للدفاع

كان العالم الاسلامى فى ذلك العصر أى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر يشمل أقساما ثلاثة كبرى ولكل منها فروع وأجزاء ففى طرفه الغربى كانت دولة الاندلس وقد عبرت اليها جموع المرابطين من أفريقيا ، فهزمت المسيحيين الاندلسيين وأعادت اليها شيئا يشبه ما كانت عليه من القوة أيام دولة بنى أمية . وبعد المرابطين يأتى اليها الموحدون من افريقيا فيرفعون علمها الى أواخر القرن الثانى عشر ثم تتحطم تلك الدولة حتى لايبقى منها الا غرناطة لتشهد تاريخ القرون التالية

وكان فى أفريقيا الشمالية من الغرب دول يرتبط تاريخها بتاريخ دولتى المرابطين والموحدين . وأما فى الشرق فكانت دولة العبيديين أو الفاطميين وقد بقيت هناك الى أواخر القرن الثانى عشر حتى قضى عليها البطل الكبير يوسف بن ايوب صلاح الدين كما سيأتى . وكان فى شرق هذه البلاد رقعة الدولة العباسية مقسمة بين أمراء السلاجقة بعضهم من نسل ملك شاه وبعضهم من نسل قواده ورجاله ، وكان للخلافة على هؤلاء سيادة اسمية لاتكاد تعدو السكة (النقود)

والخطبة فى المساجد،ولم تكن بين دول الاسلام رابطة متينة بل ان اثنتين منها كانت على خلاف ومنافسة بل على عداء وهاتان هما الدولة العباسية والدولة الفاطمية ، فان الاولى كانت دولة سنية والاخيرة كانت شيعية ولكل من الدولتين خليفة يرى نفسه أحق بأن يدعى لهعلى المنابر جميعها، فكان من الطبيعى أن العالم الاسلامى عندما صدمته الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر لم يكن متماسكا بل كان مقسما الى دول متنافسة ، ولم تكن الدولة العباسية فى ذاتها دولة بالمعنى الصحيح بل كانت مقسمة الى امارات كل منها مستقل بأمره لاتربط بينها الا جامعة اسمية لا حقيقة لها . وكانت الدولة العباسية هى التى قابلت الصدمة فلم تقو على احتمالها ثابتة بل تصدعت وتداعت وخيل للناس أن قد هوت وضاع أمرها ، ولم تجد لها نصيرا من داخلها اذ كانت كلمتها مفرقة ، ولا من خارجها اذ كان الفواطم أقرب الى الشماتة بها . وكان أهل أفريقيا والاندلس فى شغل بأمرهم عن أن يمدوا مساعدة لاحد آخر ، وزد على ذلك بعد الشقة وقلة الارتباط . ولكن ذلك التصدع لم يكن ظاهرا فان الدولة الاسلامية مالت أمام الموجة القوية ولم تكن هزيمتها انكسارا . بل ان العقيدة لم تتزعزع فى وقت من أوقات تلك المحنة ولم يكن فى الناس شك من أمرهم بل ظل فى نفوسهم ايمان صادق ان مآل تلك الموجة التى اتت من وراء البحر الى الضعف وانه لابد



خريطة الامارات الصليبية

من الانتصار عليها وردها من حيث جاءت بعد حين . وقد ظهرت هذه العقيدة فى كثير من الوجوه فما كادت الامة تفيق من الصدمة الاولى حتى أخذ رجالها يعملون على اظهار تلك العقيدة الكامنة . وكان أول من أظهرها أتابك عماد الدين زنكى صاحب الموصل (١) اذ استولى على امارة (الرها) فى عام ١١٤٤ م ـ ٥٣٩ هـ . بعد أن هزم الصليبيين

فزعت أوروبا عند ذلك،وجردت الكتائب لاسترداد مافقده الصليب ولكن الذى ينعم النظر فى تلك الحرب الثانية لايسعه الا أن يلاحظ أن الحماسة الدينية قد خبت قليلا فى قلوب أهل أوروبا . وقد عجزت كتائب المسيحيين عن استرداد الرها مع اشتراك اثنين من كبار الملوك المسيحيين فى الحرب وهما الامبراطور كنراد الثالث عاهل الدولة الرومانية المقدسة ولويس السابع ملك فرنسا ، وقد استمرت الدولة

---

(١) هو ابن أحد أمراء العسكر تحت قيادةملكشاه وهوآقسنقر . وقداظهر عماد الدين بعد موت أبيه شيئا كثيرا من الشجاعة والاقدام حتى أنالسلطان محمود السلجوقى أقطعه واسط (سنة ١١٢٢ م الموافقة لسنة ٥١٦ هـ) ثم اقطعه الموصل والجزيرة ومنحه لقب « اتابك » ومعناه الامير الحاكم وكانت أيامه كلها اضطراب من جميع النواحى لضعف الحكومة العباسية واضمحلال أمر حماتهم سلاطين السلاجقة ولهذا كان نفوذ أمراء النواحى بالغا أعظمه وكانت نتيجة هذا أن زاد أمر الصليبيين وعظم بلاؤهم فيما يليهم من بلاد الاسلام فتجرد عماد الدين الى اعداد العدة لحربهم وكان أول نصر أعلى من شأنه فتح حلب وقد تحاشى الدخول فى المنازعات الكثيرة التى كانت لا تنقطع فيما بين أمراء السلاجقة من جهة وبين السلاجقة والخليفة من جهة أخرى . بل جعل كل همه مكافحة الفرنج بالشام ففتح منهم فتوحا ثم توج كل أعماله بفتح الرها (اذاسه) (١١٤٤ م ـ ٥٣٩ هـ .) وكان لسقوطها فى يده دوى عظيم فى أوروبا اهتزت له شعوبها وجهزت عقب ذلك حملة كبرى تعرف بالحملة الصليبية الثانية

الاسلامية على محاولتها الاولى تسـعى للخلاص من الاغراب الذين اخذوا بعض بلادها الى أن ظهر رجل الجهـاد الاكبر وهو نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى فجعل حيـاته لاظهار عقيدة الامة الاسلامية فى النصر ظهورا واضحا (١)

وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب أحد رجال هذا الامير العظيم وسيفا من سيوفه . وليس بعجيب أن ينشـأ رجل تابعا لعظيم ثم يعلو شأنه ويظهر امره حتى يغطى ذكره على ذكر سيده ويصبح المجد والعظمة للتابع دون المتبوع

---

(١) مات عماد الدين زنكى شهيدا بعد أن فتح كثيرا من بلاد الفرنج وذلك انه قتل فى نومه ــ قتله جماعة من مماليكه بتحريض أعدائه وكان من خـير أمراء المسلمين سيرة وعدلا واصلاحا لموارد الثروة والتماس سبل الخير للناس. هذا عدا تعضيده للعلم والادب . فلما توفى ترك أولادا اربعة أكبرهم سيف الدين غازى . وثانيهم نور الدين محمود وقد استولى الاول على الموصـل والجزيرة وورث الثانى امارة حلب . وكان ابنه نور الدين جنديا شجاعا وهو فى الوقت نفسه فقيها عالما وكان بحكم وجوده فى حلب أقرب الى حـدود الفرنج ولهذا كان هو صاحب حروبهم . وقد قابل نور الدين صدمة الحرب الثانية التى أثارتها أوروبا لاسترداد أذاسة حتى اذا ما انقضت موجتها وخبت نارها عاد الى سيرة أبيه فبدأ يغير على الامارات الصليبية وكانت وطأته فى حروبه أشد من وطأة أبيه ونصره أكثر اطرادا . وقد فكر فى أخذ دمشق لكى يضمها الى دولته فتكون قوة له فى حربه ضد الفرنج وحانت له فرصة رضى أهلها بالانضمام الى دولته فدخلها بغير حرب وسط تهليل النـاس واعطاه الخليفة لقب (الملك العادل) عقب ذلك الفتح (سـنة ١١٥٤ م ــ ٥٤٩ هـ) وما زال أمره بعد ذلك فى نمو حتى أرسل الحمـلة الى مصر (سنة ١١٦٤ ــ ٥٥٩ هـ) .

الدول الاسلامية بالشام والجزيرة

(١) الشام والجزيرة

قتل عماد الدين زنكى وهو فى ميدان الحرب وبعد مقتله تقسمت دولته بين ابنيه واولهما سيف الدولة غازى الذى استولى على الشرق وجعل مقره الموصل . وثانيهما نور الدين محمود الذى استولى على الغرب وجعل مقره حلب ، على أن نور الدين هو الذى سار على سنة ابيه وقد عاش مدة أطول من أخيه ، ولهذا تمكن من بسط سلطانه على البلاد التى ورثها ابوه الشهيد عماد الدين واستولى على غيرها مما فتحه من أملاك المسلمين المستقلين أمثال دمشق وبعلبك ومما فتحه من أملاك المسيحيين بعد أن فشلوا فى حملتهم الثانية التى اشترك فيها كنراد الثالث امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، ولويس السابع ملك فرنسا

وقد كانت سياسة نور الدين فى فتح البلاد التى بيد أمراء من المسلمين ان يقنع بدخول الاقليم فى دائرة دولته ـ لايريد من وراء ذلك زيادة فى الملك والثروة بل كان كل قصده ان يجعل تحت سلطته دولة قوية يستطيع أن يصدم بها الصليبيين صدمة قوية تصدع أركان دولتهم ، فانه قد

خريطة دولة نور الدين وما جاورها

جعل قصد حياته الجهاد واخراج المسيحيين من بلاد الشام . وكان قوى الايمان بما هو فيه من عمل ينظر الى حروبه نظرة شبيهة بنظرة المسلمين السابقين فى أول الاسلام الى حروبهم مع اعدائهم ، ولا ادل على ذلك من ان اخا له فقد عينا له فى موقعة اذ أصابه فيها سهم ، فقال له معزيا : « لو كشف لك عن الاجر الذى أعد لك لتمنيت ذهاب الاخرى ». فكان ذلك الرجل المجاهد لا يتطلع الا الى جمع الدولة الاسلامية تحت يده لتكون له قوة على الجهاد . فكان اذا فتح حصنا اسلاميا سلك أحد مسلكين : فاما أقر عليه حاكمه الاول اذا اطمأن اليه وعرف انه يقدر على الدفاع عنه والبقاء الى جانبه ، واما أن يقطع ذلك الحاكم أرضا بدلا من حصنه ويضمه الى بلاده . وقد كان اذا أعطى بدلا أجزل فى عطائه كيما يرضى المحروم وامثلة هذا كثيرة ، منها أنه عندما استولى على قلعة (جعبر) وهى حصن منيع على الشاطىء الشرقى للفرات الاعلى أعطى صاحبها شهاب الدين العقيلى اقطاعا عظيما بدلها قرب (حلب) ومقدارا من المال (نحو عشرين الف دينار) وما كان فى تلك القلعة من غنى ينتظره او مال يحصله الا انها موقع حربى ينفعه فى غرضه . ويمكن أن نصف دولة نور الدين بأنها كانت دولة اقطاعية على نسق الاقطاع فى أوروبا فقد كان العصر عصر اقطاع فى الشرق والغرب على السواء ، وكان هو رئيس تلك الدولة الاعلى وتحت أمره عدد كبير من الامراء كل فى جهته يحكم

مستقلا على أن يكون هو وجنوده فى حروبه . ومما يسترعى النظر فى تلك الدولة كثرة القلاع الحصينة والقصور المنيعة المبعثرة فى السهل وعلى قمم الجبال . ولعل الاسباب التى دعت الى بناء تلك القلاع فى الغرب فى أوروبا ، هى نفسها التى دعت الى بناء مثلها فى الشرق الاسلامى . فقد كانت الحكومات المركزية فى ذلك الوقت مزعزعة ، وكانت الاغارات كثيرة لا حصر لها بين ترك يغيرون من الشرق ومسيحيين يغيرون من الغرب وفرق دينية (كالشيعة الاسماعيلية) (١)

---

(١) مذهب الشيعة فى أصله مذهب سياسى يرمى الى تفضيل بيت الرسول فى وراثة الدولة الاسلامية واذا قيل بيت الرسول فانما يقصد به نسل على من فاطمة زوجه ابنة النبى عليه الصلاة والسلام ـ ولكن الشيعة ساروا على مناهج خاصة فيما بعد فى تعبدهم حتى لقد اتخذت مذهبا دينيا خاصا وبذلك صارت الشيعة فرقة دينية سياسية فى آن واحد . ثم غلا اصحاب هذا المبدأ فأدخلوا فى مناهجهم كثيرا من البدع والرسوم من مذاهب غير المسلمين واتخذ جماعة من الثوار على الدولة الاسلامية مذهب الشيعة وفكرتها وسيلة يصاون بها الى أغراضهم فى الهدم ومن هؤلاء مؤسس فرقة الاسماعيلية وهو الحسن بن صباح (والاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق أحد الائمة من نسل على) كان الحسن بن صباح رفيقا فى الصبا لنظام الملك الذى صار وزير السلطان السلجوقى العظيم ملك شاه . وقد عجز عن أن يبلغ مأربه من السيادة فى تلك الدولة فلجأ الى الهدم فأسس فرقة غرضها القتل والفوضى وكان أفرادها يدعون لمذهب الشيعة ـ وقد اتصل بالفاطميين بمصر وهم من الشيعة الاسماعيلية كذلك وجعل يدعو لهم بنفسه ورجاله الذين انضموا اليه وكان من بينهم جماعة يطيعونه طاعة عمياء ويسمون الفدائيين وهم الذين يقومون بأعمال القتل التى يأمر بها رئيسهم وكانوا يلقبونه « بالسيد » و « سيدنا » و « شيخ الجبل » وكان نظام هذه الطائفة سريا عجيبا نسجت على منواله الجمعيات السرية فى بلاد أوروبا وآسيا ، وقد نجح ابن صباح فى الاستيلاء على قلعة (الموت) الحصينة . ويطلق عليها « وكر العقاب » فى جبال مازندران بفارس . وهذه الجمعية هى التى قتلت نظام الملك . رفيق ابن صباح القديم ، وكان لها أثر كبير فى تلك العصور اذ قتل على يد الفدائيين عدد كبير من أماثل الرجال وعجز عن القضاء عليها كبار القواد مثل ملك شاه وصلاح الدين فبقيت الى أن قضى عليها أخيرا سيل التتار الجارف

تهبط بين حين وحين كالعاصفة المخربة ـ ولهذا كانت حاجة الشرق الى القلاع والفرسان مثل حاجة الغرب على السواء. ونشأ من هذه الحاجة نظام اقطاعى كما نشأ فى أوروبا لنفس الاسباب

(ب) مصر

أما في مصر فكانت دولة أخرى تخالف ما فى الشام والجزيرة فى وجوه كثيرة ـ فقد كانت دولة الفواطم وهم شيعة علويون لهم خليفة غير خليفة السنيين وحكومة مستقلة موحدة ، ومدنية تالدة خلفها مؤسسوا الدولة منذ قرنين

وكانت مصر فى القرن الثانى عشر ميدانا لحوادث عظيمة كان لها أثر كبير فى مصير العالم الاسلامى • كان شعب مصر الهادىء المنصرف الى أعماله تاركا الحكم الى حكامه الذين استولوا على البلاد عنوة منذ أيام المعز لدين الله فى أواخر القرن العاشر للميلاد • وكان المصريون من أهل السنة ولكنهم خضعوا لتلك الدولة الشيعية وانصرفوا الى أعمالهم لا يهتمون بشىء من أمر الدولة اذ كانت الحكومة على وجه الاجمال لا تتدخل كثيرا فى عقائدهم

وقد حدث على مر الايام شىء عظيم من التفاهم بين الحاكم والمحكوم حتى كادت الشيعة المصرية تكون سنية الا فى بعض المظاهر والرسوم • ولكن هدوء تلك البلاد لم يبق كما كان بل حدث تغير فى القرن الثانى عشر عندما ذهبت أجيال الخلفاء العظام من الفواطم ووقع الامر الى سلسلة متأخرة من

خلفاء لا حول لهم ولا قوة فصار الحكم الى قواد الجيش والوزراء من عز منهم غلب واستولى على الخليفة . وكان الخليفة فى العادة يختار طفلا من البيت الفاطمى، فكان بعضهم لا يعدو سن الرابعة كالفائز بنصر الله الذى حكم بين سنتى (١١٥٤ ـ ١١٦٠) من الميلاد (٥٤٩هـ ـ ٥٥٥هـ) وجاء بعده العاضد لدين الله، وكان فى التاسعة من عمره عندما صار خليفة بمصر

فى أثناء ذلك العصر كان نور الدين قد هزم الفرنج ووحد دولة عظيمة فى الشام والجزيرة . وكان من بين الوزراء بمصر من طمع فى ان يجعل صلة بين دولة نور الدين ، وبين مصر ، وذلك هو الرجل العاقل الصالح ابن رزيك لولا أن اختلاف المذهب الدينى كان حائلا لا يمكن تجاوزه

وكان الصليبيون يعرفون أن مصر بلاد غنية وأنها أسهل فتحا من قلاع الشام وليس بها أمثال نور الدين وجنوده . وكانوا يتطلعون الى ان يقيموا ضعفهم بضمها الى ملكهم، ولولا خشية نور الدين أن يهوى على بلادهم فى أثناء محاولتهم ذلك الفتح لبدءوا به منذ أخفقوا فى الاستيلاء على دمشق واسترجاع الرها فى حربهم الثانية فى منتصف القرن الثانى عشر

ولقد جرت بمصر حوادث وأراد القائمون بها الانتفاع بالموقف السياسى الذى حولهم ، فكانت النتيجة الطبيعية تنافسا بين الدولتين المجاورتين على أيهما تدخل تلك البلاد وتسود فيها هاتان الدولتان هما : دولة نور الدين ، ودولة الصليبيين

ساد على مصر فى سنة ١١٦٤ (٥٦١هـ) رجل من العرب

اسمه شاور ، واستبد بأمرها بعد أن قتل العادل رزيك بن الصالح رزيك الوزير الكبير . وقد نازعه فى الامر أمير عربى آخر من قبيلة لخم من بلاد الصعيد واسمه ضرغام ، وكان آخر النضال بين الزعيمين أن هرب شاور يلتمس مساعدة من الخارج على خصمه ، فذهب الى نور الدين وعرض عليه شروطا مغرية اذا هـو أعانه على استرجاع أمره بمصر ، وكان نور الدين يتطلع الى التدخل فى تلك البلاد فسنحت له تلك الفرصة . وكانت شروط شاور أن يعطى لنور الدين نفقات الحملة وثلث ايراد مصر جزية سنوية . وقد ساعدت الظروف على أن يسرع نور الدين باجابة شاور الى ما سأل لأن ضرغام منذ أحس بسعى شاور أخذ هو من جانبه طريقا آخر يزعم فيه سلامته فأرسل يستعين بالدولة الاخرى دولة الفرنج بالشام ، فلم يتردد نور الدين بعد ذلك بل أرسل جيشا مع شاور ، وجعل عليه مقدم جيشه أسد الدين شيركوه بن شادى ، وجعل معه الشاب الممتاز يوسف بن أخيه أيوب بن شادى

الفصل الثالث

العصر الأول
من حياة صلاح الدين

منشؤه وشبابه

يحيط جو من الابهام حول نشأة يوسف بن أيوب ونسبه وذلك شأنه شأن كل رجل ينبغ من صفوف العامة فيبلغ أقصى ذرى العظمة. وقد حاول بعض من كتبوا عنه أن ينسبوه الى أسرة عريقة وعرق شريف ، ولا يسع الانسان الان يبتسم عندما يرى امثال هؤلاء المتحمسين من الكتاب يوصلون نسبه الى معد بن عدنان بل الى آدم عليه السلام

على أنه لا يغض من قدره أننا لا نستطيع أن نتعدى فى نسبته الجد الاول فهو يوسف بن أيوب بن شادى ، وليس بعد شادى من الاسماء ما نقدر على التثبت منه

كان ابوه واهله من قرية (دوين) فى شرق أذربيجان ، وهم من بطن (الروادية) من قبيلة (الهذانية) وهى قبيلة كبيرة من قبائل الاكراد ، ويظهر أن جده شادى نزح بولديه أيوب (نجم الدين) وشيركوه (أسد الدين) الى بغداد ثم نزل بتكريت حيث مات شادى . وقد نشأ الاخوان بعد ذلك والتحقا فى خدمة متولى الشحنة بالعراق (مجاهد الدين بهروز) الذى كان متوليا من قبل السلطان مسعود بن غياث الدين

محمد بن ملك شاه السلجوقى . ثم انتقل نجم الدين أيوب الى خدمة عماد الدين زنكى صاحب الموصل وصار « حافظ قلعة بعلبك» أو (دزدارها) . فلما قتل زنكى انتقل نجم الدين الى خدمة صاحب دمشق والتحق أسد الدين أخوه بخدمة نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكى ، وهو اذ ذاك صاحب حلب ورثها من دولة ابيه بعد موته . وكان له أخ ورث الموصل وما يليها ، وهو سيف الدين غازى بن زنكى . وفى أثناء تلك الحوادث ولد لنجم الدين ولد سماه يوسف ولعل ولادته كانت فى ليلة خروج أبيه من تكريت الى خدمة عماد الدين زنكى وذلك حوالى ١١٣٨ للميلاد (٥٣٢هـ) . وقد نشأ فى كنف أبيه بدمشق ، وظل أبوه هناك الى أن أوغل نور الدين بفتوحه الى الجنوب واستولى على دمشق فانضم الى خدمته ، وكان اذ ذاك يوسف قد ترعرع وصار فتى فى السادسة عشرة من عمره فدخل فى خدمة نور الدين مع أبيه وعمه . وكانت مخايل النجابة ظاهرة عليه ، فكان نور الدين يؤثره ويقربه ، ويلوح أن الفتى كان حاد الذكاء ، له عقل ناقد فأدرك ما فى طبع سيده من كرم وعلو وشهامة وجعل يأخذ نفسه بما اعجبه من صفاته

على أننا لا ننكر أننا لسنا نقدر أن نعرف عن شباب صلاح الدين شيئا كثيرا ، ولا غرابة فى ذلك فقد كان أحد صغار الملحقين بالجيش فلم يكن دونه مجال للعمل والظهور الى جانب الكبار من قواد الجيش وشجعانه . وكان جيش نور الدين فى



صورة صلاح الدين الايوبى (خياليه)

هذا الوقت يحوى جماعة كبيرة من المبرزين الشجعان ٠وليس يذكر لنا صلاح الدين شيئا عن شبابه الا أنه كان يترحم عليه ويحن اليه وذلك أمر طبيعى لكل كبير السن اذا نظر الى الشيب وعجزه ٠ وأما غير ذلك فلا نسمع السلطان فيما بعد يذكر عن أعماله شيئا فى وقت صغره ، ويمكن أن نعزو هـذا الى حسن بصره وتواضعه فأكبر الظن أنه يأبى أن يذكر لنفسه شيئا فى وقت كان فيه صغيرا بين كبار يجلهم ويعرف لهم فضلهم

ولا نملك النفس عن ذكر حقيقة نراها قد تساعد على أن تظهر الينا صورة ذلك الرجل قريبة من الوضوح ، وذلك أنه قد كان فى شبابه يرتاد مسارح اللهو حيث يرتاد أمثاله من الفتيان ٠ فانه تاب عن الخمر وغير ذلك من اللهو وهو فى مصر بعد أن حمل عبء الوزارة وصار من رجال الامر فخلع عنه ما لا يليق به فى مكانته الجديدة وهل من الغريب ألا يكون الشباب معصوما ؟ وهل ينقص من الرجل أنه كان يتذوق اللهو حلوا فى جهله وسورة شبابه فاذا هو شعر بالواجب وثقله رمى عن نفسه لهوها وفرغ الى واجبه يتذوق حلاوة القيام به بنفس الهزة التى كان يشعر بها فى لهوه ؟ على أنه بقى الى آخر حياته محتفظا بالميل الى لذات أخرى لا عار من أن يصيبها الرجل فقد كان منذ شبابه مغرما بصيد الظباء فى الصحراء وسماع الادب الطريف فى المجالس الحافلة بالاصدقاء أوبالعلماء وأهل الفضل

وكان أول عهده بالعمل الجدى خروجه الى مصر فى صحبة عمه أسد الدين شيركوه فى سنة ١١٦٤ للميلاد (٥٥٩ هـ) وسنه نحو ست وعشرين سنة

الحملات الى مصر

ذهبت الحملة الاولى الى مصر لمساعدة شاور فى ابريل سنة ١١٦٤ م (٥٥٩ هـ) وهزم الجنود الاتراك الذين مع شيركوه جيش ضرغام عند بلبيس وسارت الجنود المنصورة الى القاهرة وهناك وجد ضرغام نفسه مخذولا وليس حوله من يثق به أو يركن اليه، وتخلى عنه الخليفة الذى كان لا يثبت فى جانب وزير مقهور وله فى ذلك العذر اذ كان الوزراء أيام قدرتهم لا يرعون له حقا بل يجعلونه أشبه بالاسير فى قصره . وكانت آخرة ضرغام على يد شعب القاهرة حين ثار به فاحتز رأسه قرب مشهد السيدة نفيسة ، وتم النصر لشاور منافسه

على أن شاور بعد ذلك رأى الامر قد تم كما أحب فلم تعد به حاجة الى حلفائه شيركوه ومن معه، وكان قد احتاط لنفسه فجعل جيش شيركوه خارج القاهرة قرب النيل ـ ولم يتحرك الى الوفاء بما كان قد تعهد به لنور الدين فبدأت مشادة بينه وبين حلفائه السابقين أدت الى أن أنفذ شيركوه ابن أخيه صلاح الدين الى بلبيس كى ينزعها لتكون هى واقليم الشرقية فى يده رهنا. فأرسل شاور الى (امرى) ملك بيت المقدس (املريك)

يطلب مساعدته على جيش نور الدين ، وكان (امرى)لايستطيع أن يرفض ذلك الطلب اذ كان يتطلع الى امتلاك مصر لا يمنعه الا خوفه من نور الدين ، فلما بلغته دعوة شاور ضمن ان يكون المصريون الى جانبه فأقدم . وهكذا كان شاور يلعب بالنار التى ستحرقه

بقى الجيشان الاجنبيان يتطاحنان قرب بلبيس وكان نور الدين فى أثناء ذلك يهوى بجنوده على أملاك الصليبيين بالشام ، ففتح قلعة (حارم) الى غرب (حلب) وبهذا صارت انطاكية مهددة باغاراته ، ثم جد فى حصار حصن (بانياس) بقرب دمشق فكان على (املريك) أن يعود قبل أن يتسع الخرق . وكان شيركوه لايعلم بذلك الانتصار الذى احرزه نور الدين وكانت جيوشه تحارب على قلة من المؤونة ولم يكن له عند بلبيس حلفاء يساعدونه ولا حصن يمتنع فيه ، ولهذا سره أن يفاتحه الفرنج بالصلح على أن يخرج هو وهم جميعا من مصر وكان منظر خروج جيش شيركوه من بلبيس فى أكتوبر سنة ١١٦٤ م (٥٥٩ هـ) اشبه شىء بالنصر ، وذلك إن الجيش سار عن بلبيس وجاء فى آخره أسد الدين شيركوه يحمل فى يده ليا من حديد يحمى ساقتهم ووقف حول الجيش جمع من مسلمى مصر ومن الفرنج ينظرون اليه وهو يخرج عن البلاد . فقال له أحد الفرنج : « أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك حتى لاتبقى لك بقية » فأجاب شيركوه

« يا ليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما أفعل . كنت والله أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجالا وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين فلا يبقى منهم أحدا »

فى مثل هذه الحال وفى مثل ذلك الجو المعنوى ـ بدأ صلاح الدين أول جولة جدية له فى غمار الحياة العملية

مضى بعد ذلك أكثر من عامين كان فيهما شاور سيد الدولة بمصر وكان شيركوه فى أثنائهما يردد أمله فى العودة الى مصر لامتلاكها،وكان يحرض نور الدين بكل وسائل التحريض وهو يعلم ان اقرب الحجج الى نفسه ان مصر تساعده فى جهاده مع اعدائه الفرنج . وكان يسهل له فتحها قائلا : « انها دولة بغير رجال » . ولكن يجب الا ننسى ان ثروة مصر ايضا كانت من أكبر حجج شيركوه أمام نفسه وامام سيده . وكان الخليفة العباسي عندما علم بما يقصده شيركوه يساعد على غزو مصر بتحريضه ودعواته فان بيت بنى العباس لم ينس أن بيت فاطمة فى مصر كان منافسا خطيرا ، وأن الشيعة العلوية بدعة يجب أن تزول فلا يبقى على الارض الا السنة وأتباعها

وقد كان نور الدين يتردد فى انفاذ تلك الحملة التى يحرضه شيركوه على ارسالها . ولكنه علم أن الصليبيين على نية غزو مصر ، فجعله ذلك يصمم على ارسال تلك الحملة ، على الرغم من أن جيشه لم يكن كبيرا ، فقد كان نصف عدد أول فرقة انفذها عمر بن الخطاب الى مصر

اذ كانوا لايزيدون على الفى رجل على الاصح ، ولو أن الفرنج يبالغون فى عدد ذلك الجيش . على أنهم كانوا الفين من فرسان أبطال ، وكان صلاح الدين مع عمه هذه المرة أيضا

سارت الكتيبة فى أوائل سنة ١١٦٧ م (٥٦٢ هـ) الى شرق النيل عند اطفيح ، وعبرت الى البر الغربى من هناك فأقبل (أمرى) بجيش كبير من الشام وانضم الى جيش شاور ، وكان عدد جنوده من الفرنج والمصريين معا أكثر بكثير من عدد جيش شيركوه ولو أن الفرنج يدعون أنهم لم يكونوا فى كثرة

بعد حين كان الجيشان أحدهما عند الفسطاط وهو جيش مصر وحلفائها الفرنج . والآخر وهو جيش الاتراك (شيركوه) عند الجيزة فى البر الغربى . ومضت فترة انتظار كان فيها الصليبيون يستوثقون لانفسهم بمعاهدة أمضاها الخليفة العاضد بنفسه ، وحلف عليها على أن يعطى الفرنج مائتى الف دينار معجلة ومثلها مؤجلة ثمنا لمساعدتهم (١)

---

(١) جاء فى كتاب صلاح الدين تأليف ستانلى لين بول :

« أختير هيو حاكم قيصرية وجوفرى فارس المعبد رسلا من الملك (أمرى) وقد سار بهم الوزير بنفسه وجعل يقتحم بهم كل رسوم الاوضاع السرية . فسار بهم فى ممرات خفية وأبواب عليها حراس من أقوياء السودان وكانوا يحيونهم بسيوفهم المجردة حتى بلغوا صحنا فسيحا لا سقف له الا السماء وحوله أقبية قائمة على عمد من الرخام ، وكان السقف المزخرف مرصعا بالذهب مزينا ببديع الالوان وأما الارض فكانت من الفسيفساء البديعة ، وقد أخذت تلك المناظر بعيون الفارسين الذين لم يعتد نظرهما أن يقع على مثل هذا الجمال ، فكانا يريان هنا فوارة من الرخام تحيط بها الطيور الزاهية التى ليس مثلها =

بعد ذلك عبر جيش الفرنج والمصريين الى الغرب على غرة من شيركوه فاضطر هـــذا أن يتقهقر الى الجنوب حتى بلغ (البابين) فى جنوب المنيا وهناك على حافةالسهل الغربية من قبل الصحراء وقف شيركوه بأصحابه واستعد للحرب رغم نصح بعض قواده الا يفعل . وبدات الموقعة العظيمة فى ١٨ ابريل سنة ١١٦٧ م . وكانت خطة شيركوه أن يجعل صلاح الدين فى القلب ــ فيظن اعداؤه أنه هو شيركوه الذى فىالقلب حسب العادة المتبعة اذ كان القلب عادة يوضع تحت قيـــادة رئيس الجيش ، وتوقع شيركوه بذلك أن يكون القلب اول مايتعرض لهجوم العدو . وأما هو فقد اختـــــار جماعة من

= فى بلاد الغرب ثم يريان هناك أنواعا من الحيوان لامثيل لها الا ان يصور الوانها مصور بارع أو يخترع صورتها شاعر ماهر أو يحلم بها حالم فى عالم الخيال وهكذا كانا يريان اشياء لا يريان مثلها فى بلادهما اذ هى مما لا يوجد الا فى بلاد الشرق والجنوب

وبعد سير طويل فى تعاريج وتلافيف وصلا الى مكان العرش فأعلن قدومهما مدد عظيم من الحشم يلبسون حللا بهية ، ثم تقدم الوزير خالعا سيفه وقبل الارض ثلاث مرات كأنما يسجد لله ثم اعقب ذلك أن انكشفت الستائر الثقيلة فجأة وهي تلمع بما عليها من ذهب ولؤلؤ ، ولاح من خلفها الخليفة وعليـــه حلل وزينة تزرى بما يتحلى به الملوك

فقدم اليه الوزير بخشوع الرسولين الفارسين وبين بصوت منخفض ماكانت فيه البلاد من الخطر وماكان منشأن صداقة ملكبيت المقدس له ، وكانالخليفة شابا أسمر اللون قد خطا الخطوات الاولى خارجا من عهد الصبا ، فقـــال انه يرغب أن يوافق على معاهدة صديقه العزيز ملك بيت المقدس ، ولكنه تردد فى أن يمد يده عند ما طلب الرسول منه أن يمد يده دليلا على صدق عهده وقد غضبت حاشيته من ذلك الطلب غير أن الخليفة مد يده بعـــد قليل الى السير هيو ، ولكن هذا وجد عليها قفازا فقال : « مولاى ان الحق لا غطاء له وان كل شيء مكشوف فى عهود الامراء » فتبـــم الخليفة برغمه وخلع قفازه كارها ثم مد يده الى هيو وحلف اليمين على انفاذ المعـــاهدة بصدق واخلاص

ابطاله المجــربين وجعل منهم الجناح الايمن وأمر صلاح الدين اذا هو هوجم ان يتقهقر فى نظام ولا يثبت ثبوتا جديا حتى يغتر الفرنج ويتبعوه ـ وهكذا كان ما توقع فان كتلة جيش مصر والفرنج صدمت القلب صــــدمة قوية فتقهقر صـــلاح الدين بنظام وثبات ، فتبعه الفرنج وعند ذلك هبط شيركوه بالجناح الايمن على جيش المصريين فحطمه حتى اذا ما عاد الفرنج من تتبع القلب وجدوا حلفاءهم منهزمين . فاتبعوهم منهزمين كذلك ـ على أن شيركوه لم يتبع أعداءه ولعل ذلك راجع الى قلة عدد جيشه فآثر أن يذهب الى الاسكندرية وقد تمكن من أخذها بمساعدة أهلها ، وترك بها صلاح الدين بنصف الجيش وعاد هو الى الصعيد يجبى الاموال

وهناك فى الاسكندرية ظهر ذكاء صـــــلاح الدين وتكشفت مواهبه فى الحرب وكيدها وبدا منه ذلك الثبات وذلك السلطان على النفوس وتلك القوة التى ميزت خلقه فى حياته المقبلة

عاد المصريون والفرنج بعــــد ان جمعوا أمرهم واصلحوا ما افسدته الهزيمة الى الاسكندرية فحاصروها من جهة البر على حين كان أسطول الصليبيين يهاجم المـــدينة من جهة البحر . وقد استمر الحصار نحو شهرين ونصـــف شهر ونفذت الاقوات ، ولم يكن بالناس من اطمئنان على تلك الحال من الحصار وكان صلاح الدين فى قلة من الجنود لا يستطيع غير أن يبث مافى نفسه من ثبات فى قلوب من فى المـدينة من تجار وصـــناع وعامة ، فــكان حينا يعدهم بقدوم شـــيركوه



موقعة البابين

بالزاد والثروة ، وحينا يخيفهم ايقـــاع الفرنج وقسوتهم ، وحينا يرغبهم فى الصبر والثبات فى سـبيل نصر الدين على اعداء ملة محمد ، وكان فى الوقت نفسه ينفذ الرســل الى عمه يشكو اليه ماهو فيه من مشقة وعناء من اعدائه واصحابه على السـواء ، واخيرا جاءت البشرى بقـدوم أسد الدين من الصعيد الى القاهرة وحصاره لها . وعند ذلك رأى «امرى» ان النصر غير ممكن فاتفق مع شـــيركوه على أن تخـــلى الاسكندرية ، وان يخرج الجيشان جميعا من مصر وان يأخــذ شيركوه كل ما استولى عليه من الاموال ويزيد عليه خمسين ألف دينار ، وهكذا انتهى دور الحرب الثانى على بقاء مصر خالصة لشاور . ولعله تبسم اذ ذاك وفرك يديه مهنئا نفسه عندما رأى نجاح لعبه بالقوتين العظيمتين قوة الصليبيين وقوة الاتراك وبقائه سالما بين تنافسهما ، ولـكن مثل هذا السلاح سلاح الخداع والحيلة قد يرتد على من يستعمله فيقتله ، ولا شك أن صلاح الدين حمل لشاور فى تلك المرة كثيرا من الـكره ممزوجا بالاحتقار اذ أدرك حقيقته

▱

لم يقم الفرنج بما تعهدوا به فأبقوا منهم حراسا على ابواب القاهرة ، وضربوا على مصر جزية نحو مائة الف دينار كل عام وكانوا يطمعون فى اكثر من هذا اى انهم كانوا لايرضون بأقل من ملك مصربعد أن عرفوا من ضعفها اكثر مما عرفه شيركوه

وقد عادت جيوشهم بعد نحو عام من معـــاهدتهم لغزو

مصر ـ وكان عزمهم هذه المرة عزم من لا يريد هوادة ، غير ان شاور اظهر من المقاومة ما لم يكن منتظرا منـــه فأحرق الفسطاط حتى لا تكون غنيمة لاعدائه الذين كانوا حلفاءه بالامس ، ومنذ ذلك الوقت ذهبت أول عاصمة اسلامية لمصر ولم يرجع اليها بعد ذلك شيء من روائها القـــديم اذ ظلت النيران تأكلها أكثر من خمسين يوما

وكان جماعة من المصريين الذين حول الخليفة العاضـــد والذين كانوا أعداء شاور يراسلون نورالدين لكي يأتي لمساعدة مصر على أعدائها ، وكان نور الدين يميل الى التدخل بطبيعة الامر ، فما هو الا ان أرسل اليه العاضد يستنجد به حتى اخذ يعد جيشا لغزو مصر وكانت الشروط التى وعد بها العاضد شروطا لاتبررها الا الضرورة القصوى التى كانت بها مصر فقد وعد نور الدين بثلث أرض مصر وابقاء جيش احتـــلال مع شيركوه فيهـــا وأن يقطع الجنود أرضـــا خارجة عن ثلث البلاد الموعود به لنور الدين

اما شاور فانه لم ينس أن يلجأ الى الحيلة منذ راى نفسه بين عدوين لاحظ له مع ايهما ، فأحب أن يعمل على صرف الفرنج عن البلاد بالمال ، فجعل يفاوضهم حتى اتفق معهم على ألف ألف دينار يعطيها لهم ليرحلوا عنه ، وعجل لهم منها مائة الف ولـكنه لم يستطع أن يحمل اليهم سائر المال

وبينما هو كذلك ازاء أعدائه الفرنج كان نورالدين وشيركوه يسرعان فى الاســـتعداد حتى اتماه وسار جيش من ســـتة

آلاف بينهم كثيرون من الامراء النابهين وفيهم صــلاح الدين الذى سار مع الجيش على كره منه بعد الحاح عمه وتكرر طلب نور الدين ، ويظهر ان صلاح الدين كان غير راض عن الاشتراك فى غزو هذه المرة لمــا شهده فى الحرب المــاضية من الشدة لاسيما فى الاسكندرية . ولــكنه على اى حال ســـار مع الجيش وكان الجميع فى مصر فى أوائل يناير سنة ١١٦٩ م ٥٦٤ هـ وكان « امرى » ملك الفرنج عند وصول جيش نور الدين واقفا يستنجز شاور وعده فى المال المتفق عليه ، فلما اتى جيش نور الدين ورأى « امرى » موقفه الحرج وهو بين شاور من جهة والجيش الاسلامى المغير من جهة اخرى لم يستطع البقاء فعاد الى الشام بغير ان يصطدم بالجيش القادم وبقى شيركوه وحده بمصر وكان الخليفة العاضد ظاهر الفرح به فأكرمه وخلع عليه ، وأما شاور فلم يكن راضيا عن وجود ذلك الجيش القوى على كثب منه ، غير انه كظم غيظه العظيم ولم يظهر شيئا منه خوفا وعجزا ، وجعل يماطل فى انفــاذ الشروط التى اتفق عليها العاضد ونور الدين، وجعل يظهر اللين لــكى يخلص من عبء ذلك التعهـــد الثقيل ، وكان يريد أن يستميل شيركوه بالملق والمداهنة بل لعله كان يفكر فى أن يوقع به لولا مقاومة ابنه لذلك الراى

▱

رأى شيركوه مماطلته ويلوح انه كان يميل الى التســاهل قليلا ، ولكن كان هناك من يكره ذلك الرجل المخادع ويحتقره

ويستشف الخيانة من وراء لين ظاهره ــ وذلك هو صلاح الدين . ففاتح عمه فى القبض على ذلك الثعبان فلم يرض شيركوه ــ فعزم هو على أن يأخذ الامر فى يده . وفى ذات يوم خرج شاور على عادته الى معسكر الجيش التركى خارج القاهرة فلم يجد شيركوه ، وقيل له انه خرج لزيارة قبر الامام الشافعى فرأى شاور ان يذهب اليه هناك . وفى اثناء سيره قرب منه صلاح الدين ومعه عز الدين جورديك احد أمراء الجند وقبضا عليه فأنزلاه الى الارض وقيداه،وتفرق أصحابه عنه ووضع فى خيمة وحده ــ وما هو الا ان بلغ نبأ القبض عليه لخليفته العاضد حتى ارسل يلح فى طلبراسه ــ فأطيع امر الخليفة . وهكذا ذهب رجل كان يلعب بأمر مصر ست سنين ونيفا وانتهى كل مكره الذى كان يدل به بدخول جيش نور الدين واستيلائه على البلاد

وقد كان من الممكن ان نمر على هذا الموقف مرورا سريعا فليس به مايستحق أن نقف عنده لعبرة أو مناقشة ، ولكن حرصنا على اظهار حقيقة نفس صلاح الدين كما هى تجعلنا نسائل النفس : هلهناك فى عمله بشأن شاور ما يؤخذ عليه؟ لقد قبض على الرجل وقيده حتى جاء امر الخليفة العاضد بقتله . ولعله كان ذا يد فى انفاذ أمر العاضد ــ أو لعله على الاقل حبذ ذلك الامر وسر له

الم يكن ذلك غدرا من صلاحالدين فىأوله وقسوة فىآخره ؟ انا لا نستطيع آن ننسى شخص شاور اذا أردنا مناقشة هذا

الراى فقد كان صلاح الدين يحمل فى نفسه عنه رايا سيئا منذ الحملتين الاولى والثانية ، اذ عرف لين ملمسه وخبث نيته وضعف نفسه الذى يغطى عليه بمكره . وقد انكشف له جشعه الذى كان يحاول اقناعه مضحيا بالدماء الغزيرة من اصحابه ومنافسيه على السواء . فهل عجيب مع ذلك ان يكره صلاح الدين مثل هـذا الرجل ويسعى فى تطهير مصر منه ؟ أليس من الطبيعى أن تخزه تلك البسمات التى كان يراها على وجهه المخادع وهو يعلم ما انطوى تحتها ؟ واذا هو راى مماطلته ومداهنته اليس من المتوقع أن تثور نفسه الحرة الصريحة التى غذاها هواء الجبال والصحراء ، ولم تعرف الا الحقيقة الصارمة فى ميادين الموت التى كان يخوضها ؟ واذا هو سمع الاشاعات عن نية ذلك الرجل الغدر بعمه أسد الدين ، اما كان واجبه أن يتخذ الحيطة منه ، وهو من يعرف عنه الخبث والغدر ؟ حقا لقد احتقر شيركوه أن يؤاخذ شاور بما يشاع عنه وتكبر ان يابه بالخطر الذى كان يهدده من ناحيته فكان فى ذلك مثله مثل من يرى الحية تريد أن تنهشه فلا يرضى لها الا عقب نعله يدفع به عن نفسه أمامها ، ولكن شجاعة شيركوه وكبره شىء وعدالة موقف صلاح الدين شىء آخر ، فقد أخذته الحفيظة فعزم على أن يوقف ذلك المرائى عند حده . فأسره مع جماعة من اخوانه ، ولكنه لم يقتله . فاذا كان قتله ذنبا فالذنب اذن على الخليفة العاضد الذى الح فى قتله وامر به غير مرة . على أن صلاح الدين لو قتله لما

كان آثما ولا معتديا ــ فان شاور رجل قل أن تجد فى التاريخ من استحق القتل مثله ، ولا من يكون قاتله أشد رضاء عن نفسه ، وأسلم من تأنيب الضمير والندم . فهو رجل أثار حربا من أجل الوزارة بمصر وبعد أن نصره جيش قتل من قتل من رجاله وأبطاله رجع يغدر به ويستنصر عليه بعدوه . وقد كان من الممكن أن يرضى الانسان عن خطة شاور لو أنه اتخذ لنفسه جانبا وسار مخلصا فيه الى غايته ولكنه كان مثل اللاعب فوق الحبل يميل تارة هنا وتارة هناك يحاول ان يحفظ نفسه فوق مكانه الدقيق . فاذا نحن أردنا الحكم عليه وعلى خطته كان لابد لنا أن نقر له بالمهارة فى الانتفاع بمن حوله ومقدرته على التقلب مع الظروف والاحوال ، ولكن ذلك كل ما يمكننا أن نقوله عنه فقد كان مثلا للسوء فى تعامله وتعهده ونيته . ولقد كان صلاح الدين باشتراكه فى أسره آلة من آلات العدالة الالهية

▱

وقد اختار الخليفة العاضد بعد قتل شاور أسد الدين شيركوه ليكون وزيرا محله وبالغ فى اكرامه وخلع عليه وسماه الملك المنصور،وجعله قائد قواده وامير جيوشه ، غير أن الاجل لم يمهله ليتمتع بمجد الدنيا الزائل اكثر من شهرين وخمسة ايام ، وقد كان جديرا بمصر وملكها لانه فى الواقع اكبر من دفع على غزوها واليه أكبر الفضل فى فتحها . وقد قيل مات من الخناق من وراء تخمة اذ كان كثير الاكل وهو اقرب الآراء

الى التصديق وقيل مات من حلة مسمومة ـ وما أحرانا ان نلحق ذلك القول الاخير بأمثاله فى أقاصيص الشرق فما زال الخيال الشرقى ميالا الى أن يحيط أبطاله بالاسرار والخفايا

وعند موت شيركوه كان فى الجيش جماعة من كبار الامراء وكان المتوقع ان يختار أحدهم وزيرا بعد شيركوه فما كان من الممكن أن يتجاهل الخليفة العاضد وجود ذلك الجيش المحتل فى بلاده . وكانت المظاهر كلها تدل على أن خليفة مصر ورجاله يحبون الابقاء على مساعدة جيش نور الدين خوفا من تدخل الصليبيين ، فقد كانوا يرون أنه اذا كان لابد من احتلال أجنبى فليكن ذلك الجيش من المسلمين . ولهذا كان المنتظر أن يختار العاضد وزيرا له من كبار أمراء الجيش النورى ، ولكن حدث مالم يكن منتظرا فان السياسة المصرية اذ ذاك كانت لا تنسى أن تلجأ الى الدهاء فى مقابلة المصاعب الكثيرة التى كانت غير قادرة على حلها فى ميدان الصراحة والقوة ، ولهذا عمد الخليفة العاضد الى حيلة يحسبها تضمن له مساعدة جيش نور الدين مع أمن شره واتقاء استبداده فجرى على عادة المصريين فى تفضيل الاصاغر لكى يكونوا أسهل قيادا . فتخطى الامراء الكبار فى الجيش واختار للوزارة ذلك الشاب الذى كان مظنة اللين والسهولة ، وهو صلاح الدين فقد رأى الخليفة فيه ماظنه ضعفا واستكانة لما كان عليه من الحياء والاعتزال وقلة التظاهر ، ولو كان الخليفة ورجاله انفذ نظرا واعمق فكرا لعرفوا أن تلك المظاهر

انما تخفى نفسا كبيرة تواقة.اذ أنه لم يكن سوى ذلك الجندى الشجاع الذى ابلى بلاءه فى موقعة البابين ، وذلك القائد القادر الذى دافع عن الاسكندرية دفاعه المجيد مع حداثة سنه وشدة الظروف التى حوله . على أن الامور جرت بقدر ، وكان خطأ الخليفة العاضد ورجاله من حسن حظ مصر والاسلام فأصبح صلاح الدين وزيرا لمصر وأميرا لجيوشها



وزارة صلاح الدين

لم تكن بصلاح الدين رغبة فى الوزارة فقد كان يرى حرج موقفه فيها ويعلم انه لابد يلقى فيها متاعب ومصاعب فدونه أمور سياسة الدولة وأى دولة ؟ انها مصر التى يتطاحن عليها جماعة من المستوزرين من الداخل يريدون السلطة ، وجماعة من الصليبيين من الخارج لا يدعونها سالمة ! وكان كذلك يستشف كراهة الامراء الكبار لتوليته ، ولم تكن نفسه من تلك النفوس الجشعة التى اذا لوح لها بالمجد طارت اليه طائشة ، بل لعله كان يرى من نفسه غنى عن ذلك المجد بما يشعر به فى نفسه من عظمة

ولهذا نعلم انه تردد كثيرا حتى رضى بعد لأى أن يكون عند اختيار الخليفة فذهب الى القصر ، وخلعت عليه خلع الوزارة « من جبة وعمامة وغيرهما » ولقب بالملك الناصر

ولسنا نجد غرابة فى انه قبل الوزارة بعد امتناع فانه فكر فى نفسه وفيمن حوله فلم يشعر بما يجعله يظن فى غيره قوة ليست عنده ، ورأى أمورا معوجة طمع أن يكون له فضل اصلاحها ولعل آمالا اشرقت فى نفسه عندما رأى صغر نفوس

رجال الدولة التى أمامه فأقـــدم وهو يشعر بثقـل الامانة وصعوبة المرتقى

كان اختياره مغضبا لـكبار الامراء كما توقع فلم يأبهوا به واعتزلوه حتى سعى بينـــه وبينهم رجل من رجال الدين والسيف معا وهو البطل الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى فأقنعهم بأن يظلوا على الولاء له حتى قبلوا جميعا الا جماعة اكبرهم عين الدولة الياروقى فانه خالف،وعاد مع جماعته الى الشام وبقى صلاح الدين بمصر ليقابل أمورها واحدا فواحدا . ولسنا نسمع بعد ذلك عن خلاف بينـــه وبين الامراء الذين رضوا بالخضوع له ، فلم يظن أحد منهم أنه خضع لغير شريف، او اذل فى ذلك الخضوع ، وقـــد رضى نور الدين عن ذلك الاختيار وفرح به وصار يرسل اليه فى مخاطباته (الى الامير الاسفهسلار) وذلك لقب معناه « الامير الحاكم » كان يطلق فى ذلك الوقت على كبار القواد

ولـكن اذا كان صلاح الدين قد أمن جانب من معـــه من الامراء فانه لم يأمن جانب الياروقى ومن معه فى الشام وهم يرقبون منافسهم الفتى عن بعد

▱

وبعد أن صارت الوزارة الى صلاح الدين ، امتنع عن اللهو والخمر واستشعر الجد فى كل اعماله وأخذ جوهره يظهر صافيا خالصا . وكان من أكبر الصفات التى ظهرت فيـــه كرمه فى البذل لمن معه وتعففه عن أن ينال لنفسه شيئا

ولعله شعر أنه محتاج الى أمناء أوفياء لا يدآخله شـك فى امرهم، فأرسل يطلب من نور الدين ان يبعث اليه أباه واخوته فأرسلهم اليه بعد ان آستوثق منهم أن يطيعوه ، ولم يدر نور الدين أن ذلك الفتى الناشىء لم يكن فى حاجة الى ذلك الاستيثاق فقد كان له من عظمة نفسه مايجعل من معه يخضع له راضيا. وهكذا كان. فلم تمض على وزارته ستة أشهر حتى كان كل من معه من الامراء والاهل خاضعا محبا لسيادته فى آن واحد

ولعله من المفيد أن نقول أن سـنه وقت أن تولى الوزارة لم تكن بأزيد من واحد وثلاثين عاما

وكانت الامور التى شغلته منذ تولى الحكم بعضها فى الداخل، وبعضها من الخارج، وكان الداخل اول ماستوجب منه العمل وذلك أنه بعد وزارته بأربعة أشـهر شـعر رجال القصر أنهم بازاء رجل ذى بأس وليس كما ظنوه ضعيفا، فأخذوا يدسون له وكان رئيسهم خصيا أسود (مؤتمن الدولة) فبدءوا يراسلون الفرنج سائرين على سنة شاور ، فعلم صـلاح الدين بالامر وكتمه حتى رأى فرصة فى مؤتمن الدولة فقبض عليه، وقتله فتعصب له الجند السودان حراس القصر وثاروا بصلاح الدين، ولكنه كان مستعدا فأوقع بهم بين القصرين ولم ينج منهم الا القليل الشريد . ومنذ ذلك الحين جعل على القصر خصيا أبيض من رجاله وهو بهاء الدين (قراقوش)

▱

لم يمض زمن طويل بعد تلك الثـورة حتى واجهته أخطار من وراء البحر فجاءت أسـاطيل الدولة الرومانية الشرقيـة

والفرنج لحصار دمياط فى عـدة كبيرة اذ بلغت سـفنهم نيفا ومائتين ولعلهم حسبوا أن خلو مصر من شيركوه يجعلها سهلة الفتح . فأظهر صلاح الدين أنه يقدر على كثير فى غـير جلبة فأرسل العسكر والذخيرة الى دمياط بالنيل ومكنها بذلك من مقاومة هجمات المغيرين العنيفة وأرسل فى الوقت عينـه الى نور الدين يذكر له الحال ويطلب منه المعونة ثم لم يتوآن فى الامر فذهب في جيش الى دمياط ليشغل المحاصرين عن فتح المدينة • وقد أسعفه نور الدين كعادته اذا جـد الجد فأرسل اليه البعوث ارسالا يتلو بعضها بعضا ثم أهوى هو فى الشام على بلاد الفرنج فنهب فيها وخرب فاضطر المهاجمون الصليبيون أن يرفعوا حصار دمياط ويعودوا الى الشام ليحموه من هجمات نور الدين بعد خمسـين يوما من الحصار ، وكانت سياسـة صلاح الدين الداخلية عاملا من عوامل الاطمئنان والوفاق فى مصر حتى أن الخليفة العاضد لم يضق به كما كان يضيق بمن سبقه من الوزراء ولم يفرح بهجوم الصليبيين هـذه المرة ولم يستعن بهم بل أرسل الى صلاح الدين كثيرا من المال والذخيرة حتى لقد قدر صلاح الدين نفسه ما أرسله العاضد اليه بمقدار مليون من الدنانير المصرية • نذكر ذلك تشريفا لآخـر خلفاء الفاطميين فى مصر

انقراض الدولة الفاطمية

بقيت الدولة الفاطمية بمصر نحو قرنين وهى تحاول بسط سلطانها على ما جاورها من البلاد وكان امتداد ملكها انقاصا من سلطان دولة العباسيين

وظلت الدولتان متنافستين تعلو كفة العباسية مرة وكفة الفاطمية مرة الى أن جاءت الدولة السلجوقية كما سبق القول وكانت الدولة الفاطمية قد اضمحل أمرها منذ أن مضى أوائلها العظام

على أننا لانستطيع أن نعرف على وجه البت هل كان لوجود هذه الدولة العلوية فى مصر قرنين أثر فى عقائد أهلها • فان كل الظواهر تدل على أنه لم تكن هناك رسوم دينية خاصة تخالف أساس ما اعتاد أهل السنة فى عباداتهم ومعاملاتهم • فانه ان كان ثمة شىء من ذلك فهو شىء من الزخرف والزينة والابهة فى رسوم الدين ولم يكن على ما يظهر اختلاف فى أساس العقيدة فلم يكن خلفاء دولة الفاطميين من غلاة الشيعة ولم تكن لهم تلك العقائد الغريبة السرية التى تميز الشيعة فى الاقاليم الاخرى • أما الزخرف الذى ذكرناه فى رسوم الدين بمصر فلم ينكره أحد وقديما كانت مصر تميل الى

الزخارف فى رسوم الدين وليس بأس من ذلك ما دام لايمس العقيدة . ولعل طبيعة ارض مصر الوادعة وطبيعة أهلها الميالين الى المرح والبسطة والسهولة الذين يقدرون الجمال ويحبونه - لعل كل ذلك حبب الى نفوسهم ما كان للدولة من تكلف فى الدين وأبهة وزينة فى الحفلات . وأما العبادات والمعاملات بحسب القانون الدينى فاننا لا نجد ما يدل على أن دولة الفاطميين قد أحدثت فيهما تغييرا يذكر

ولم يكن بالمصريين كره للدولة الفاطمية على أنه لم يكن بهم كذلك ميل الى التضحية بشىء فى سبيلها كما هى عادة الدولة اذا كان حكمها فى يد طائفة معينة دون جمهور الشعب. وكان الشعب المصرى يرى فى كثير من الاحيان لا سيما فى الايام الاخيرة ظلما وضعفا من جانب الدولة ولكنه كان دائما يميز بين الوزارة صاحبة القوة فيحقد عليها وبين الخلافة صاحبة الامر الاعلى ويعلم انها لا حول لها ولا قوة ولهذا كان يعطف عليها ، فعندما أبصر الشعب صلاح الدين على الوزارة ورأى كرمه فى البذل وتصرفه فى الدفاع وقوته فى الحرب أعجب به وأحبه والتف حوله . وكان صلاح الدين منذ أخذ الوزارة فى يده يسعى لتوطيد أمره بأن يجعل الشعب يثق به ويلتف حوله . ولكنه آثر ألا يصدمه بتغيير فجائى فبدأ ينشىء المدارس السنية على مذهب الامام الشافعى وعارض سيده نور الدين فى أمر القضاء على الحكم الشيعى من أول الامر اذ كان نور الدين يحب أن يبدأ بازالة الخلافة الفاطمية عند أول دخول جيشه

مصر فراجعه صلاح الدين مظهرا ما قد ينتج عن مثل هـــذا الانقلاب الفجائى

الا أن الحاح نور الدين فى قطع الخطبة العلوية بمصر جعله يفكر كيف يعمل فاستشار أصحابه فانقسموا فى الرأى بين محبذ ومنكر واتفق بعد ذلك أن مرض العاضـــد واحتجب فى قصره فرأى الوزير الفرصة ممكنة فجرب قطع الخطبة من أحد المساجد وقام بالخطبة للخليفة العباسى رجـل أعجمى يعـرف (بالامير العالم) فلم يحـدث اسـتنكار من جانب الناس فأمر صلاح الدين الخطباء جميعا أن يقطعوا خطبـة العاضد ففعلوا وتم الانقلاب بدون حدوث شيء . وقد أول جماعة تردد صلاح الدين بأنه كان يرغب فى بقاء الخطبة للعاضـــد خوفا من نور الدين . ولا حاجة بنا الى الوقوف هنا لرد هذا الزعم اذ لانجد حجة هذه الجماعة جديرة بالتفنيد . فان الحكمـة السياسـية وحدها كانت تقضى عليه بسلوك ما سلك من طريق التريث

أرسلت البشائر الى نور الدين وبغـداد وازينت عاصـــمة الخلافة العباسية وأرسلت الخلع من الخليفـة العباسى الى نور الدين وصلاح الدين وأصبح فى الشرق كله خليفة واحد من بنى العباس لا ينازعه أحد ينتمى الى ذلك البيت الجليـل بيت بنى هاشم

وقد حدث أن العاضد فى أثناء مرضـه أرسل يستدعى صلاح الدين فخاف صلاح الدين ان يلبى دعوته وظنها خدعة ومؤامرة على عادة المصريين . ولكنه عرف فيما بعد أن العاضد كان مخلصا

فى طلبه فندم على ذلك اذ كان لا يرى من ذلك الشاب الخليفة الا كل ما يرضيه من حب ومساعدة واخلاص • وقد كان من حسن حظ العاضد أنه لم يعرف ما حدث من الانقلاب فقد توفى من مرضه فى سبتمبر سنة ١١٧١ م — ٥٦٧ هـ . ولم يعلمه احد بأن الخلافة نزعت عنه بعد أن لبثت أكثر من قرنين ونصف قرن فى بيته منذ كان فى شمال أفريقية قبل هبوطه مصر

وهنا فلنسكت عما كان فى قصر الخليفة من تحف ثمينة وآثار قيمة وكتب نفيسة وآلاف العبيد والاماء والثروة الطائلة . ولنكتف بأن نقول أن صلاح الدين لم يأخذ من كل ذلك شيئا لنفسه بل ذهب كله لرجال الجيش والامراء الذين معه حتى القصر نفسه ، وبقى الوزير العظيم مقيما حيث كان فى خشونة من العيش وسذاجة من الحياة تقرب من حياة الزاهد



الوحشة
بين نور الدين وصلاح الدين

نحن مضطرون أن نقف قليلا نناقش تهمة يوجهها كثير من المؤرخين الى صلاح الدين وهى انه منذ شعر بثبات مكانه فى مصر أثار وحشة بينه وبين سيده وعزم على الخروج عليه ومحاربته اذا دعا الامر . وما كان للانسان أن يتهم حتى يكون عنـــده الدليل القاطع . واتهام صلاح الدين بالخروج على نور الدين واثارة الوحشة بينه وبين سيده الذى يجله والذى كان له عليه فضل التربية والعناية والتشجيع اتهـــام خطير يجب على من يسوقه أن يكون من أشد الناس احتراسا فى قوله ولهذا نؤثر أن نذكر تهم المؤرخين ثم نرى مقدار قوتها على ضـــوء المنطق ودلالة التاريخ وهذه هى التهم التى تساق :

(١) بعد القضاء على الدولة الفاطمية سار صلاح الدين سنة ١١٧١ م ـ ٥٦٧ هـ . راغبا فى حرب الفرنج فحاصر حصـــن الشوبك بفلسطين على مسيرة يوم من الكرك فعلم نور الدين بتلك الحرب فرغب فى مساعدة صلاح الدين فسار من دمشق نحوه وكان صلاح الدين قد أوشك أن يأخذ الحصن من الفرنج فلما علم بمسير نور الدين تركه ورجع الى مصر وكتب الى نور الدين يعتذر له باختلال الامور فى مصر فلم يقبل نور الدين

ذلك الاعتذار وعزم على المسير الى مصر واخـراج ذلك المتمرد عنها • فجمع صلاح الدين أهله وفيهم أبوه وخاله ومعهم سائر الامراء واستشارهم ، فقال قائل :«نمتنع عليه ونحاربه» . فقام نجم الدين أيوب أبو صلاح الدين وقال قولا معناه أنه لايوافق وانه اول من يطيع نور الدين ويعصى ابنه اذا خرج عليـه ! وانفض المجلس على نصيحة أيوب أن يرسل صـلاح الدين الى نور الدين يستميله ويطلب عفوه ويذعن له ويظهر الخضوع ثم لما خلا ايوب بابنـه ، قال له : « ما كان ينبغى أن تصنـع ماصنعت فان الاخبار لاشـك تبلغ نور الدين » ثم قال له : « ألا فاعلم أننا لا نسلم البـلاد له ولو أراد قصبـة من قصب السـكر لحاربناه عليها »

(٢) بناء على المفاوضة بين صلاح الدين ونور الدين استقر الامر أخيرا على أن يقصد الاثنان حصن الكرك ويحاربا هنـاك معا فلما كانت السنة التالية (أوائل سنة ١١٧٣)ذهب صلاح الدين وحاصر الحصن فلما بلغه مجىء نور الدين رجـع ورفع الحصار عنه وعاد الى مصر وأرسل الفقيه عيسى الهكارى يعتذر لنور الدين بأنه ترك أباه فى مصر على مـرض وانه يخشى ان يموت فتخرج البلاد من أيديهم وأرسل مع الفقيه من الهـدايا والتحف ما يجـل عن الوصف • فلم يقتنع نور الدين بذلك الاعتذار واستوحش باطنا ولكنه لم يظهر شيئا من تأثره

(٣) مابين غزوة الشوبك سنة ١١٧١م ــ ٥٦٧ هـ . وغزوة الكرك فى اوائل سـنة ١١٧٣ م ــ ٥٦٩ هـ . ارسل صـلاح

الدين أخاه الاكبر شمس الدولة توران شاه ليفتح النوبة لكى تكون لهم موئلا يلجأون اليه اذا اجلاهم نور الدين عن مصر ، ولـكن تلك الحملة لم تنجح لانها وجدت البلاد صحراء لاتغنى

(٤) بعد غزوة الـكرك فى سنة ١١٧٣م ـ ٥٦٩هـ . لمـا راى صلاح الدين أن النوبة لاتغنى احب فتح ملجأ آخر فارسل يســـتأذن نور الدين فى فتح اليمن « فاذن له نور الدين » فذهب اخوه شمس الدين توران شاه اليها وفتحهـــا ونظم احوالها واصلح شؤونها واســـتقام امر الايوبيين بهـا نحو خمسين سنة

هكذا يصور كثير من المؤرخين موقف صلاح الدين بازاء سيده وحقا ان فى الحوادث التى يذكرونها كثيرا من الحقيقــة ولـكن تأويلهم فى ظننا تأويل لا تبرره الظروف ولا يقبله العقل وما كان لنا أن نكذب تأويلهم لولا أننا نرى أن الادلة كلها تشير الى ان ذلك التأويل صادر عن الخيال لا عن الحقيقة . فهناك الادلة المادية التى تظهر تأويلا غير هذا وهنـاك ما نعلمه من صلاح الدين وخلقه ما ينفى أن الامر الواقع كان كذلك

هنا امر يستوقف النظر وهو أن المؤرخين الذين يذكرون تلك الامور يتفقون فى ايرادها وفى كثير من الاحيـــان تتفق الفاظهم مع اختلاف فى الايجاز والاطناب وهذا ما يجعلنا نظن أن مصدر القصة واحد اخذ عنه الجميع ولا يبعد ان يكون ذلك المصدر من جانب الشام أو من جانب من كان مع نور

الدين من الامراء الحاقدين على صلاح الدين أمثال الياروقى.
اما نحن فنرى لكل تلك الحوادث تفسيرا آخر نعتقد انه اكثر اتفاقا مع الاحوال والاشخاص :

(١) فرجوع صلاح الدين عن الشوبك سنة ١١٧١م وعن الكرك سنة ١١٧٣م كان أمرا طبيعيا ولولا تلك القصة التى يذكرونها عن اجتماعاته بأمرائه وما يعزونه اليهم من الاقوال لما كان هناك ما يستغرب فى عمل صلاح الدين . فالشوبك والكرك حصنان من أمنع الحصون فى فلسطين وكان فتحهما من أكبر الفتوح التى تغنى بها الاسلام فيما بعد بعدجهود عظيمة ومحاولات متكررة أخفقت مرارا وكان يحميهما جماعة من المحاربين المستبسلين الذين يقاومون حتى لايكون دونهم مايقاومون به مال او دم . وكان صلاح الدين فى سنة ١١٧١م خارجا من احداث انقلاب بمصر وازالة دولة لها فى البلاد أصل ثابت منذ قرنين وكان لها اتباع وأنصار يفكرون فى الدفاع وارجاع الامر الى ما كان عليه ولا سيما انه كان اذ ذاك حديث عهد بثورة السودانيين ولا يأمن أن يترك مصر الا قليلا . ففى سنة ١١٧١ م عندما حاصر الشوبك رأى أن الحصن لن يسلم الا بعد أمد قد يطول وأن نور الدين قد يشترك فى الحرب فيجعلها واسعة الدائرة فينتقل من ميدان الى آخر وهو الرجل الذى يحب الجهاد ويجعل حياته له ، فآثر الرجوع وارجأ فتح ذلك الحصن الى وقت آخر ولو كان يخشى الاقتراب من نور الدين فما كان الذى دعاه ان يفكر

مبتدئا فى غزو فلسطين ؟ اما كان يؤثر من اول الامر ابقاء الصليبيين بينه وبين من يخافه ؟

(٢) واما فى سنة ١١٧٣م فقد كان صلاح الدين يشم خطرا فى الجو لا تفوته حركة من حركات صديقه وعدوه على السواء فلما دعاه نور الدين الى حصار الكرك لم يستطع أن يمتنع حتى لايسىء سيده به الظن فذهب الى هناك فى شوال وكان هو السابق وظل على الحصار وحده مدة شهرين ثم اقبل نور الدين بعد ذلك متأخرا فى ذى الحجة

ورأى صلاح الدين أثناء ذلك امتناع الحصن عليه ، ولعل نور الدين لو كان اشترك معه من أول الامر لكان الحصن قد سلم او لكان على الاقل هناك تساو فى المجهود يبعث نور الدين على الاكتفاء وترك الحرب الى حين ، فتأخر نور الدين كان معناه ان غياب صلاح الدين عن مصر سيستمر الى مدة أطول ولا سيما وأن جيش نور الدين كان لا يزال جديد الهمة وهو يعرف أن نور الدين اذا بدأ الحرب فلن ينتهى منها الا بعد ان يبلى بلاء حسنا ولن يستطيع صلاح الدين أن يترك الحرب اذا هو بدأ فيها الى جانبه لئلا يكون ذلك تخذيلا . فآثر ان يتبع من اول الامر ما تمليه الرجولة ويوجبه الحذر فأرسل فى ادب معتذرا واظهرخضوعه بما ارسل من هدايا وانفذ رسوله رجلا يعرف ماكان عليه من صفات ولا يطعن احد فى اخلاصه وهو الفقيه عيسى الهكارى وكان رجلا شجاعا دينا فلو وجد شيئا

على صلاح الدين من الخيانة لسيده لـكان يفضى بذلك الى نور الدين اذ كان يعتقد أنه المجاهد فى سبيل الله المخلص فى غزواته القائم فى عبادته الزاهد فى دنياه . ولم يكن نورالدين فى قلوب الناس ولا سيما الفقهاء بأقل مما كان صلاح الدين بل ان الناس جميعا كانوا أميل الى الخضوع له واتباعه مما كانوا يميلون الى الفتى الناشيء

ولكن الفقيه لم يذكر الا كل خير ولم نسمع عن نور الدين أنه قال الا جوابا مرضيا

ولكن كان حول نور الدين جماعة من أمثال الياروقى الذين كانوا يرون صلاح الدين قد سلبهم ملك مصر ولابد أن هؤلاء كانوا يحاولون ما استطاعوا أن يظهروا لنور الدين سوء نية منافسهم لعله يحقد عليه ويخلعه فيكون ذلك انتقاما لهم منه . فجعلوا يفسرون حركات صلاح الدين بما شاءت لهم نفوسهم المغضبة

ولا يبعد أبدا بل نرى أن تفسير حركات صلاح الدين بعدم رغبته فى مقابلة نور الدين من وحى هؤلاء واشاعاتهم

أما قصة المجلس الذى جمعه صلاح الدين بعد رجوعه عن الشوبك فانها تشبه القصص التى نسمعها فى المؤلفات الخيالية حتى أنها لتورد الالفاظ التى قالها أيوب لابنه فى خلوة وهو ينصحه ألا يقول شيئا فى العلن الا الخضوع لنور الدين ويؤكد له فى نفس الوقت أنه لو أراد نور الدين قصبة من مصر لحاربه عليها • وأن نجم الدين الحريص ليكون ممن ينصح بشيء ويخالفه

ويعلم وهو محتاج الى التعلم لو كان أسمع أحدا ما قاله لابنه اذ ذاك فى خلوته • والا أفليس من المضحك أن يعرف مؤرخ ما قاله نجم الدين لابنه فى خلوة ولا يعرف ذلك نور الدين نفسه ؟

على أن هناك ما يفيد أن سيرة ذلك المجلس وما وقع فيه لم تكن الا خيالا فان ابن شداد وهو القاضى بهاء الدين مؤلف سيرة صلاح الدين وصاحبه فى مسيره وحروبه لم يذكر شيئا عن ذلك المجلس ولم يذكر والد صلاح الدين ولا نصيحته ولكنه نقل الينا وهو مصدق فيما يقول ـ قال سمعت صلاح الدين نفسه يقول : « كان بلغنا أن نور الدين يقصدنا بالديار المصرية وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نرده اذا تحقق قصده وكنت وحدى أخالفهم وأقول : لايجوز ان يقال شيء من ذلك »

فالحقيقة هى ان نور الدين تغير على صلاح الدين واساء الظن به لانه حمل على أن يؤول حركاته وأعماله بغير ما قصده ـ وعزم على السير اليه وصلاح الدين صابر لا ينوى مقاومة ولا يظهر الا الخضوع ولا يبطن الا الاخلاص

(٣) و (٤) وأبلغ من كل ذلك ذكر فتح النوبة والقول بأن ذلك كان مقصودا به فتح أرض تكون ملجأ من نور الدين . والواقع أن تلك الحملة لم تكن الا لتطهير جنوب مصر من بقايا الحرس السودانى الذى كان لا يزال منه بقية ثائرة بالصعيد حتى تكون مصر كلها مطمئنة له من البحر الى أقصى حدودها

الجنوبية وأما فتح اليمن فمن الغريب أن يستأذن صلاح الدين نور الدين لو كان عنده نية المخالفة ومن الغريب أن نور الدين يأذن له بارسال الجيش الى هناك لو كان حقيقة يعتقد أن ذلك الرجل يخون

فالواقع الذى نراه هو أن سوء ظن نور الدين لم يبدأ منذ سنة ١١٧١ م بل انه قد بدأ يتجسم له من بعد موقعة الكرك وبعد السماح بحملة اليمن سنة ١١٧٣ م وأن ذلك الظن لم يتجسم الا من سعى أعداء صلاح الدين ومنافسيه وأن صلاح الدين ظل الى نهاية الامر لايتأثر بما يشاع عن تغير نور الدين عليه . وأما أبوه نجم الدين رحمه الله فلم يكن له من أمر ذلك المجلس المزعوم شيء بل نعتقد انه عندما مات بمصر اثناء المدة التى كان فيها صلاح الدين عند الكرك أو عائدا منها سنة ١١٧٣ م كان لا يفكر تفكيرا جديا فى أنهناك سوء ظن بين ابنه وبين سيده



ثورة المصريين

لعل صلاح الدين لم يكن فى حياته كلها فى خطر أعظم مما كان فيه فى سنة ١١٧٣ م (٥٦٩ هـ) وسنة ١١٧٤ م (٥٧٠هـ) فان عوامل كثيرة اجتمعت على عداوته ولما لم تجد فرصة تمكنها منه علنا فى ميادين النضال عمدت الى الدسائس والمؤامرات فكان فى مصر حزب موال للشيعة العلوية أصحاب الخلافة المنقرضة ، وكان فى جيش صلاح الدين جماعة من الجند لم ينالوا ما يرضيهم فكرهوا حكمه ، وكان بقية من الجند السودانيين الذين يكرهون صلاح الدين لا يزالون بمصر، وكان هناك الفرنج وقد رأوا بلاءه فيهم عند دمياط ، وكذلك كان هناك الاسماعيلية الفدائيون الذين كانوا يميلون الى الفتك بمن قضى على دولة علوية مذهبها الدينى مثل مذهبهم . وكان صلاح الدين صاحب ذكاء متوقد وحذر لا تفوته فائتة فأدرك ان بالجو أمورا تنذر بالخطر ولهذا لم يأمن أن يبقى خارج مصر طويلاً فرأيناه يعود من الكرك سنة ١١٧٣ م قبل أن يتم فتحها ولم ينتظر لكى يشترك فى الحرب مع نور الدين كما مر . وقد حسب أعداؤه أن الفرصة سانحة لبعد جزء كبير من الجيش فى حرب اليمن (سنة ١١٧٣ م ـ ١١٧٤ م) فأحكموا أمرهم ودبروا الوثوب به . ولا يسعنا الا أن نبصر ما ارتكبه صلاح الدين من الخطأ

بتسيير حملة اليمن فى ذلك الوقت مع توقعه الخطر ـ ولا نجد مبررا لانفاذ تلك الحملة الى ذلك القطر البعيد الا رغبته فى أن يملك طرف البحر الاحمر من الجنوب كما ملك ثغر أيلة على راسه من الشمال ليمنع الخطر الذى كان فى ذلك الوقت يهدد البلاد المقدسة من ناحية المسيحيين ، اذ كانوا يفكرون فى حشد أساطيل عظيمة فى ذلك البحر لغرض الاغارة على الحجاز وقبر النبى • ولكن لحسن حظه علم بأمر المؤامرة قبل أن تنفذ خطتهم المحكمة وذلك بسعى زين الدين على بن نجا الواعظ ، فقبض على رؤساء المتآمرين وصلبهم بعد أن حاكمهم واقروا ، وبذلك قضى على النار قبل أن تشب • ولكنه اذا كان قد قضى على رأس الحية فقد خلف ذنبها ، وسيجد فيما بعد صعوبة فى تحطيم ذلك الذنب كما سيأتى

وكان أكبر من صلبهم من رؤساء المؤامرة «عمارة اليمنى» الشاعر وهو الذى حسن الى شمس الدولة أخى صلاح الدين فتح اليمن وكان يباهى بأنه هو الذى أفسح السبيل للمتآمرين بأن حمل شمس الدولة على الاقدام على حملة اليمن وبذلك أبعد جزءا كبيرا من الجيش عن مصر • وكان لعمارة أشعار فى الفاطميين منها :

يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة	لك الملامة ان اقصرت فى عذلى
بالله زر ساحة القصرين وابك معى	عليهما لا على صفين والجمل
وقل لاهلهما والله لا التحمت	فيكم جروحى ولا قرحى بمندمل

وقد أظهر صلاح الدين كعادته حكمة عظيمة فى أنواع

العقاب فانه بعد أن صلب القادة الكبـــــار اكتفى بأن نفى من اشترك فى المؤامرة من أجناد المصريين الى أقاصى الصعيد وتحفظ على من بالقصر من سلالة الفاطميين ـ وأما الذين نافقوا عليه من جنده فلم يتعرض لهم ولم يعلمهم أنه علم باشتراكهم وآثر أن يستميلهم بازالة ما يشكون منه وحدث ذلك كله فى أبريل سنة ١١٧٤ م (رمضان سنة ٥٦٩ هـ)

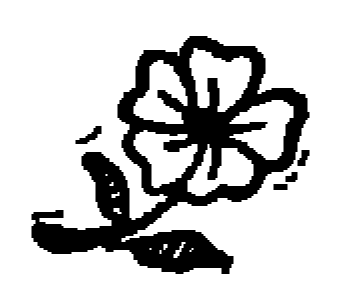
ولكن الفرنج لم يعلموا أن المؤامرة قد كشفت وقضى عليها . ولهذا جاءوا من البحر الى الاسكندرية فى يوليو سنة ١١٧٤ م (ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ) يحســـــبون أنهم سيضربون جبهة صلاح الدين فيصدعونها على حين يخرج احلافهم الخونة من خلفه فيجهزون عليه ولكن خاب ما أملوا

وفاة نورالدين

بعد القضـــاء على تلك المؤامرة بنحو شهر ونصف أتى الى صلاح الدين نعى نور الدين العظيم،وانا لا نستطيع الآن نذكر بالاعجاب ذلك البطل (نور الدين) الذى جعل كل حياته وقفا على الدفاع أمام قوم أغاروا على بلاد ليست لهم،واتوا ما اتوا من المظالم فى شعب يرى نفسه حاميا له وملزما بالدفاع عنه٠ وقد كانت حياته سلسلة حروب لا بأس من أن نسميها جهادا٠ وقد كان نجاحه فيما قصد اليه نجاحا كبيرا فكون دولة عظيمة ورد تيار الانتصار نهائيا من جانب الصليبيين،فأصبح فى جانب دولة الاسلام،وكان يدعى له على منابر مصر والشام الى الموصل واليمن ٠ على أن دولته كانت على النظام الاقطاعى يحكم كـل اقليم منها حاكم شبه مستقل يدين له بالدعوة ويرسل اليـه العسكر والمال كلما لزم له حرب ٠ وكان نور الدين فى خلقه مثلا من الامثلة العليا فى الزهد فى غير مرارة ، والتدين فى غير تعصب ، والعدالة فى غير تشدد ٠ وكان هو نفسه فى مقدمة المحاربين لا يتأخر بل يحارب بنفسه غير خائف أن يصاب ولا يطيع من ينصحه بالاحتراس ، ولا أدل على روحه من أن نورد ماقاله مرة ، وقد نصحه ناصح أن يدع الحرب خوف أن يصاب

فيكون فى اصابته هلاك المسلمين فقال : «ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ ان من قبلي من حفظ البلاد والاسلام ، وذلك هو الله »

ولا ندرى كيف كان وقع نبأ موته على صلاح الدين وأكبر ظننا انه أساءه أيما اساءة واحزنه أعظم حزن (١) على اننا لا نقدر ان نتناسى أن موته أخرج صلاح الدين من خطر عظيم ، وذلك أن الخلاف الذى دب بينهما بعد سنة ١١٧٣ م كان لابد يصل الى حد بعيد لو بقى نور الدين حيا . ومن يدرى هل كان صلاح الدين يحتفظ الى آخر الامر بما سار عليه الى ذلك الوقت من الحفاظ والاعتدال ؟ !



---

(١) ظل صلاح الدين يذكر مولاه نور الدين بكل حسنة الى آخر حياته وتدل جميع أقواله بعد أن صار السلطان الاعظم فى العالم الاسلامى على أنه ما زال يحن الى ذكرى سيده ويقدس فيه البطل الزاهد العادل

بعد وفاة نور الدين

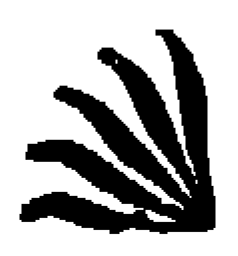
بعد أن مات نور الدين تركت الدولة الاسلامية الكبرى لابنه الملك الصالح أسماعيل وهو صبى يبلغ من العمر نحو احدى عشرة سنة وجعل مقامه بدمشق وحلف له الامراء الكبار وضربت النقود باسمه فى كل جهة من أول مصر الى أطراف الشام . وكان فى البلاد الشامية والجزيرة عواصم ثلاث أخذت القيادة فى حوادث تلك الايام وهى دمشق وحلب والموصل اذ أن سيف الدين غازى ابن أخى نور الدين (أى ابن عم الملك الصالح) أسرع الى الاستقلال بما يليه من البلاد وأعلن نفسه أميرا على الجزيرة وكان حوله من أمرائه من يحسن له أن يذهب الى الشام ويستولى عليها فليس بها من مانع . ولكنه آثر أن يقنع بالجزيرة وبقيت الشام فى أيدى الملك الصالح أو بقول أدق بقيت فى أيدى الامراء الذين استولوا على الملك الصالح تحت اسم الوصاية عليه وتولى تربيته . فكان الامر فى الواقع فى يد شمس الدين محمد بن عبد الملك المشهور بابن المقدم بدمشق، وشمس الدين على ابن الداية وهو أكبر الامراء النورية وكان فى حلب . وقد شهد الفرنج ما أصاب دولة نور الدين من الصدع بعد موته ، فان مصر صارت مستقلة ولو أن صلاح

الدين كان لا يزال خاضعا فى الظاهر للملك الصالح داعيـــا باسمه على منابره ، وكانت الجزيرة فى يد سيف الدين غازى ، وحلب فى يد شمس الدين بن الداية ، ودمشق والملك الصالح بها فى يد شمس الدين محمد بن المقدم . وكان بين هؤلاء جميعا تنافس على أيهم يسود وكل منهم ينظر الى الآخر مترقبا حذرا أن يثب به اذا هو لقى منه غرة . فانتهز الفرنج الفرصة وألقوا بفرسانهم الى دمشق وما جاورها ، ولم يستطع شمس الدين ابن المقدم أن يقاوم هجماتهم ، أو لعله كان يستطيع ولكنه آثر أن يذل لهم زعما منه أن الامراء فى الموصل وحلب ، وصلاح الدين فى مصر ، اذا رأوه منشغلا فى حـرب الفرنج ينتهزون فرصة انشغاله فيهبطون على ما فى يده فيسلبون طعمتــه . وهكذا يضمحل أمر الدول اذا هوى فى أيدى قوم لا يتطلعون الى أبعد من أنوفهم ولا يدركون الا ما تقدره نفوسهم الصغيرة

فصالح شمس الدولة بن المقدم الفرنج على مال يعطيـه لهم وأسرى يطلقهم ممن كانوا عند المسلمين منذ حروب نور الدين

وأعقب ذلك بالشام تنافس شديد بين أمير حلب وأمير دمشق على أيهما يستولى على الملك الصالح وأدى ذلك الى أخـــذ الملك الصالح الى حلب ثم الى مفاوضة مع سيف الدين صاحب الموصل أن يأتى الى الشام لكى ينجى دولة نور الدين من سفه أمرائه المتنافسين ولكن سيف الدين أبى أن يتدخل فى ذلك فارتدت المفاوضة الى جهة مصر وبلغت الدعوة صــــلاح الدين ليأتى الى الشام وكان قد فرغ من اصلاح أمر مصر وتثبيت قواعد دولته

فيها • فلبى الدعوة وسار نحو دمشق وبذلك بدأ أول خطوة في سبيل التدخل في أمر حكام الانحاء الاخـــــرى من الدولة الاسلامية ، ولن ينتهى السير فى ذلك السبيل دون توحيد جميع الدولة في يده فتكون قوة وآحدة للجهاد كماكانت في يد نور الدين • وقد وقع ذلك ما بين سنتى ١١٧٤ م ـ ١١٨٦ م



الفصل الرابع

صلاح الدين
واتحاد مصر والشام

هزيمة الفرنج بالاسكندرية

كان موت نور الدين كما قدمنا مؤذنا بسعى الفرنج من جديد لكى يستردوا ما أخذه منهم ذلك الملك العظيم ، فثاروا بالشام، وذهبوا الى قرب دمشق، وكان أبناء نور الدين ووزراؤهم على غير ماعهد الفرنج من أبيهم العظيم . وكذلك ظن الفرنج الذين اشتركوا فى التآمر على صلاح الدين كما اسلفنا فاعتقدوا انهم يستطيعون عند ذلك أن يضربوا ضربتهم لتكون قاتلة . فاجتمع لهم سفن كثيرة من الشام وصقلية بلغت عدتها نحو ٢٨٢ سفينة وجاءوا الى الاسكندرية ونصبوا المجانيق والدبابات عليها فى يوليو سنة ١١٧٤ م ولكن شتان بين ما لقيهم به صلاح الدين من العدة وبين ما لقيهم به وزير الملك الصالح بدمشق فقد كان أهل مصر واثقين بقائدهم وحاكمهم ولهذا أبدى أهل الاسكندرية من الشجاعة ما أدهش المهاجمين ثم وصلتهم نجدات العسكر فزادهم ذلك صبرا فى الحرب ، ثم بلغ الامر الى صلاح الدين فأسرع بجيش الى الاسكندرية وبالغ فى الاحتياط فأرسل جيشا آخر الى دمياط فلما عرف المدافعون مسيره اليهم دبت فيهم حماسة عظيمة وأبلوا بلاء حسنا فهزم الفرنج ، وغرقت سفن كثيرة وفشلت حملتهم فشلا تاما. ولسنا

ندرى ماذا كان يحدث لو وقع الهجوم من أربعة شهور قبل أن يقضى صلاح الدين على رؤوس المتآمرين فى داخل البلاد !

استتباب الامر لصلاح الدين فى مصر

دخل صلاح الدين مصر أول مرة مع عمه سنة ١١٦٤ م ودخلها آخر مرة مع عمه أيضا سنة ١١٦٩ م ثم اقام بها وزيرا للعاضد الى سنة ١١٧١ م ومن ذلك الوقت صار فيها شبه ملك مستقل خاضع لنور الدين على الاسلوب الاقطاعى . وقابل مشاكل مصر العديدة منتصرا فى كل موقف بغير أن يحدث زعجة أو يثير ضجة ، بل لقد وقف وهو وزير بين نور الدين السنى المجاهد وبين العاضد الفاطمى، واستطاع بكياسته وحسن اختياره ان يحفظ توازنه ويسير الامور سيرا ناعما ، فلم يحقد عليه العاضد بل ظل على تقديره والاخلاص اليه حتى مات ، وليس أدل على ذلك من طلبه رؤيته وهو فى أشد حال من مرضه قبل وفاته . وكذلك لم يجد نور الدين فى سلوكه مايجعله يندم على اقرار أمره والموافقة على تقديمه امام الجلة من كبار امرائه . ثم اصبح بعد موت العاضد ملكا على مصر فعلا مع بقائه على الخضوع لنور الدين ، وبدايشترك فى امور الدولة الاسلامية العامة فى حين ضبطه لمصر فى داخلها وخارجها ، فاذا قلنا أن سياسته كانت تامة النجاح لم يكن فى ذلك شىء من المبالغة ، اذ ما أتى آخر عام ١١٧٤ م حتى كان قد أسس دولة فتية على راسها جيش واثق برئيسه، وتدعمها سياسة اقتصادية حكيمة ملأت خزائن الدولة بغير أن تنسى

الاصلاح والتعمير ، واذا كان لرأى الشعب فى تلك العصور قيمة فقد ادرك الشعب المصرى أن فوقه رجلا ولا كالرجال ، بل هو القائد الفذ والمصلح الذى لم يعهد مثله ، فهدأت أحوال مصر وسارت فى سبيل الاطمئنان الذى سيعدها لاستقبال عصرها المجيد ايام دولة بنى أيوب ومن جاء بعدهم من السلاطين المماليك ، فلا نسمع بعد بثورة الا كان القضاء عليها أمرا لا يحتاج لاكثر من أيام ، كالثورة التى قامت بها البقية القليلة من اعداء دولة صلاح الدين وكانت فى الصعيد بقيادة رجل يعرف بالكنز ، فلم تلبث أن قضى عليها قضاء يدل على أن أساس الدولة قد صار راسيا متينا

ولم ينس صلاح الدين ان يجعل لمصر حصنا كما كان لبلاد الشام حصون ولم يرض عن سور القاهرة ولا عن حصنها فصعد فى الجبل ، واختار أقرب رأس منه مشرف على القاهرة ، وفكر فى ان يبنى عليه قلعة . ولانقدر الا أن نرى فى عزمه هذا اثرا من آثار العصر وروحه فان المحاربين عند ذلك كانوا لا يثقون الا فى القلاع سواء فى ذلك الفرنج والمسلمون ، وكان الشرق من الشام الى فارس لا يرى العز والمنعة الا فى القلاع فى تلك العصور المضطربة ، وكانت مصر بلادا سهلة فمن ملك ناصية الجبل المطل على عاصمتها استطاع أن يمتنع على المغير الاجنبى اذا غزا ارباض القاهرة ، وكذلك يستطيع من يملكها أن يظهر لكل ذى عينين فى تلك العاصمة أن هناك قوة كبيرة ماثلة امامه يقبض عليها رأس الدولة ، ويقدر أن يقذف بها على من

يخالفه

ولكن مشاكل الدولة الاسلامية بعد موت نور الدين دعت صلاح الدين الى ان يترك مصر وأمورها الى حين ، ولهذا لم يبدأ بناءالقلعة والسور الذىعزمعلى اقامته بينهاوبين القاهرة، بل أجل ذلك حتى يقابل الاخطار التى كانت تهدد دولة نور الدين ، فأسرع الى الثغرة ليسدها لانه شعر انه وارث العبء بعد وفاة العميد الاول (نور الدين) وأن عليه واجبا كبيرا وهو جمع الازمة فى قبضة واحدة ليتم عمل السابقين فى جهاد أعداء الدولة الاسلامية



توحيد مصر والشام

كانت رحلة صلاح الدين الاولى بالشام أشبه شيء برحلة زيارة ، اذ أنه لم يعد عدة حرب ولم يظهر بمظهر الفاتح وانما ذهب اجابة لدعوة توجهت اليه ووجد فى البلاد التى دعته استعدادا للانضمام تحت لوائه ، وسرورا بالاتحاد مع دولته المصرية العظيمة

سار فى نحو سبعمائة فارس فى أواخر عام ١١٧٤ م(٥٧٠هـ) حتى بلغ دمشق ولم يجد حربا لامن أصحاب البلاد المسلمين ولامن المسيحيين الذين على جانب طريقة ، فخرج اليه أهل دمشق وعسكرها ورحبوا به ، وأعلن انه انما جاء فى خدمة الملك الصالح ونصرته وسلمت له القلعة بدمشق ، وحدث الانقلاب بغير سفك دماء . ثم سار الى الشمال نحو حمص وحماه وهو يردد اعلان امره ، وانه انما جاء فى سبيل نصرة الملك الصالح ليمنع عنه جور ابن عمه سيف الدين غازى من جهة ،واستبداد امرائه من جهة اخرى ، واعتداء الفرنج على بلاده من جهة ثالثة . وقد قاومته قلعة حمص حينا الى ما بعد حصار

حلب ثم سلمت اليه . ولكن انضم اليه صديقه القديم (جورديك) وكان حاكما على قلعة حماة ، وسارا معا الى حلب .
وكان الامراء الذين مع الملك الصالح يفزعون من أن يستولى صلاح الدين على حلب خوفا من أن يقع الملك الصالح فى يده دونهم ، فقاوموا وجعلوا الملك يستثير حمية أهل حلب للدفاع عنه حتى ساعدوه مستبسلين ، وخرجوا الى حرب صلاح الدين ـ وقد بذل امراء حلب فى ذلك الوقت همة فى الدفاع عن انفسهم لم يكن صلاح الدين يتوقع مثلها منهم فقد كان الامر أمر حياة أو موت لهم . ولهذا أرسلوا باسم الملك الصالح يستنجدون بمن يتوقعون منهم المساعدة لا يبالون بشىء الا بأن يخلصوا من خطر صلاح الدين . فأرسلوا الى الفرنج يطلبون مساعدتهم وكان كبيرهم (الكونت ريمون) حاكم طرابلس ويسميه العرب القمص (ريمند) . وكذلك ارسلوا الى «سنان» مقدم طائفة الباطنية الفدائيين الاسماعيلية لكى يرسلوا قتاكهم يغتالون الرجل المخيف الذى قد يعجزون هم وحلفاؤهم عن مقاومته صراحة فى ميدان النضال الشريف ، وأرسلوا الى جهة ثالثة غير مؤملين منها مساعدة وهى الموصل حيث كان سيف الدين غازى

فكان صلاح الدين يحاصر المدينة ويقابل دفاع أهلها الشجعان فى حين كان القمص ريمند يتحرك عليه ليأتى اليه من الجنوب فيقطع عليه خط الاتصال مع قاعدة ملكه . وفى الوقت نفسه ارسل رئيس الاسماعيلية جماعة من رجاله فوثبوا بصلاح

الدين ولكنهم لم يقدروا أن يصلوا اليه . فرأى صلاح الدين ان قوته اقل من مقابلة كل هذه المقاومة التى ماكان يتوقعهـا وخشى من حركة الفرنج ولكنهم عادوا ولم يخاطروا بمحاربته عندما راوه يتحرك ضدهم وأما هو فاغتنم الفرصة لـكى لا يجعل من ورائه قلعة تهدد ظهره فاستولى على قلعة حمص التى كانت الى ذلك الحين تقاوم واستولى كذلك على بعلبـك ثم عاد الى حلب بعد أن جمع من مصر أمدادا لجيشه ، وأعد العدة للنضال والحرب الذى لم يكن فى نيته أول الامر

وقد كانت العداوة التىاظهرهاأمراء الملك الصالح،ومقاومتهم تلك التى استعانوا فيها بالفرنج والاسماعيليـة ونزولهم الى وسائل يأباها النضال الشرعى ـ لقد كان ذلك كله سببا فى ان يقطع صلاح الدين اسم الملك الصالح وان يعلن فى خطبته استقلاله منذ سنة ١١٧٥ م وقد خلع عليه الخليفة العباسى ولقبه سلطانا واصبح له مكان شرعى فوق قوته الفعلية . فلما عاد الى حلب كما تقدم وجد جنود سيف الدين غازى قد وصلت لان ذلك الامير قد تغلب عليه الخوف من صلاح الدين فبعـد أن كان حذرا لا يريد التدخل فى امور الشـام راى ان يسـاعد الملك الصالح حتى لا يدع ملك صلاح الدين يقوى ويصبح خطرا على استقلاله فى الجزيرة ، فقابل صلاح الدين جنود الموصل عند (قرون حماه) فهزمهم ثم عاد الى حلب فحاصرها حتى اشتد الامر على من بها ، ففاوضوه فى الصلح على ان يبقى كل من الجانبين

مافى يده من البلاد . وبهذا أصبح ملك صلاح الدين ممتدا من مصر الى حماه وجعل ينظم دولته الجديدة ، فولى على اقطاعها امراء من أهله وممن يثق بهم

غير ان الصلح بين الجانبين لم يدم طويلاً وكان نقضه على يد سيف الدين غازى صاحب الموصل،اذ عاد بعد عام الى حلب وكان صلاح الدين مطمئنا الى المعاهدة التى ابرمها معه فى العام الماضي،فأرسل جنوده الى مصر وكانت تلك غرة منه لو عرف اعداؤه أن ينتهزوها ولكنهم لحسن حظه تباطئوا ولعل ذكر النصر الماضى الذى أحرزه صلاح الدين هو سبب ذلك التباطؤ الذى نشأ عن مبالغة أعدائه فى الحذر . فوجد صلاح الدين زمنا كافيا لجمع الجنود والسير الى أعدائه والراحة بعد جهود السير السريع،وكان لقاء جيش سيف الدين قرب حلب عند (تل السلطان) وهناك كان اسم صلاح الدين وعدم ثقة جنود سيف الدين بقوادهم سببين داعيين الى الانهزام بغير مصادمة ، وهرب سيف الدين عائدا فى خوف الى الموصل تاركا جيشه تحت أمرة اخيه عز الدين . وتبع صلاح الدين المنهزمين الى حلب وبعث بعوثه الى الحصون المجاورة مثل منبج واعزاز ففتحهما . وحدث له فى حصار اعزار حادث يستحق أن يذكر ، وذلك أن فتاكى الاسماعيلية عادوا مرة أخرى الى الوثوب به حتى أن احدهم وصل اليه وضربه فى راسه بسكين ، ولولا المغفر لقتله،فأمسك صلاح الدين بيده ولكنه لم يقدر على منعه من الضرب فكان يضربه فى عنقه ضربات ضعيفة لم تؤثر فيه اذ كان عليه

الكزاغند (١) يحميه ، واستمر الفاتك يحاول التخلص من قبضته ويضربه حتى أدركه بعض أمرائه فقتلوا ذلك الفتاك فهجم آخر عليه ثم ثالث فقتلا دونه ، ونجا صلاح الدين نجاة عجيبة. ولكنه مع ذلك بقي على حصار قلعة أعزاز حتى فتحها . فأصبحت حلب معزولة وسط املاكه ورأى من بها ضعف موقفهم ففاوضوا فى الصلح مرة أخرى . ومن العجيب أن صلاح الدين مع انتصاره ومع ماشهده من دناءة أعدائه فى التجائهم الى النذالة فى الكيد له ونقضهم العهد معه نقول من العجيب أنه قبل مفاوضتهم ولم يشتط عليهم فى الشرط بل ترك لهم حلب ونزل لهم عن اعزاز اكراما لابنة صغيرة لسيده نور الدين وكانوا اخرجوها اليه فطلبت منه تلك القلعة التى كاد يهلك فى اثناء فتحها ، فأجابها الى ذلك وأضاف هدايا ذات قيمة مراعاة لذكرى أبيها . واتفق الجميع — فى آخر يوليه سنة ١١٧٦ م — على أن يكونوا يدا واحدة على من ينقض العهد

ولنترك هذا التصرف بغير تعليق لعله ينبىء بشىء مما كان عليه صلاح الدين أو لعل فيه ردا بليغا على من يتهمه بقلة الوفاء

---

(١) الكزاغند لباس يلبسه المحاربون فى العصور الوسطى للوقاية من ضربات السيوف

موقف صلاح الدين
امام أسرة نور الدين محمود

لايضير الرجل العظيم ان يذكر له عيب ، ومتى كان الانسان كاملا ؟ وهكذا امر صلاح الدين فليس يضيره ان يقول قائل قد كان به نقص ولو كان ذلك النقص خلقيا . فكثيرا ما يعمدرجال الدول ولاسيما رجال السيف الى وسائل تأباها الاخلاق ولكن تبررها الحاجة العملية . فيمر عليها التاريخ متساهلا كأنما يهز راسه مستسلما لطبيعة الاشياء ، ولكنامع ذلك لانرى رأى من يطعن على صلاح الدين فى موقفه أمام اسرة نور الدين ويتهمه بقلة الوفاء والجحود ، فانا نرى الوقائع كلها تدل دلالة لاشك فيها على ان صلاح الدين كان دائما يؤثر أن يخسر شيئا من الدنيا فى سبيل الاخلاق والقلب ، وماكان هو ممن يتخطون الفضائل فى سبيل شيء من الاشياء ولو كان مما يكبر فى الاعين . حقا لقد سار صلاح الدين الى الشام واستولى على دمشق ثم وقف بعدذلك وحارب جنودا اسمها جنود الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين . وهكذا يقول بعض القائلين لقد كان صلاح الدين رجل طمع فى الدنيا فضحى من أجلها بما كان يجب أن يرعى من ذمة فى بيت له عليه فضل النعمة والتربية

لسنا ندرى ماذا كان هؤلاء يريدون؟ كان الحكم للملك الصالح اسما وتنافس على اسمه الامراء أيهم يسود فيستعمل رقية ذلك الاسم فى الوصول الى غرضه ، وكان من وراء ذلك التنافس أن أصبحت الدولة الاسلامية واهنة محطمة تمد يدا سفلى الى أعدائها الفرنج بعد أن كانت تملى عليهم ارادتها أيام نورالدين. وقد كان صلاح الدين شريكا فى اقامة تلك الدولة العظيمة وشهد من نصرها ما كان يجعله يدرك مرارة الموقف الجديد من الخذلان ، ثم رأى الامراء المتنافسين وهم يتهافتون على أشياء لايقيم هو لها وزنا ، وما كان نورالدين العظيم ليرضى عن ابنه ومن استولوا عليه لو أنه شهد ما صنعوا . ولهذا نرى ان صلاح الدين كان يخطىء أفحش خطأ لو هو رضى بما وقع ولم يحرك يدا لمنع الصرح المجيد من أن يهوى الى الارض محطما . وكان من حسن حظ دول الاسلام أنه اتبع ما أملاه عليه قلبه العظيم ، ولم يخش تهمة يتهمه بها جانب من الجوانب مادام هو يحس من نفسه شرف ما هو صانع وخلاص نيته فى القصد الى المصلحة

فترة السلام

اذا قلنا أن صلاح الدين أقبل منذ سنة ١١٧٦ م (٥٧٢هـ) على فترة سلام دام نحو ست سنين الى سنة ١١٨١م(٥٧٧هـ) فليس معنى هذا أنه لم يحارب طول تلك المدة ، اذ أنه لم يخل عام من حياته من حرب منذ دخل ميدان العمل · وقد كان عصره عصر كفاح مستمر وعصر اضطراب وثوران فى داخل النفوس واضطراب وثوران فى العالم الخارجى ، وقد كان هو نفسه نتيجة ذلك الاضطراب الى حد عظيم · واذا فمعنى أن هذه الفترة كانت فترة سلام ينصرف الى علاقاته بالدول الاسلامية فانه يظهر فى هذه السنين الست بمظهر المصلح الداخلى الذى يريد أن يقيم دولته على قواعد ثابتة من القوة الحقيقية،قوة الثروة والقانون . فكان يتردد بين مصر والشام يصلح من أمر مصر بحسب ما تقتضيه حاجاتها الزراعية ، ويحاول أن يحصنها تحصينا يمنع اقليمها السهل أن يكون طعمة للمغيرين ، ولم ينس ان طبيعتها تستلزم حكومة موحدة قوية المركز فقلل من الاقطاع فيها وجعل أمراء الاقطاع الذين فيها لا استقلال لهم ولا تصرف الى جانب الحكومة المركزية وجعل يقيم فيها المدارس والمستشفيات وأمثالها من مستلزمات

المدنية المستقرة على حين كان يصلح من أمر بلادالشام بحسب مايقتضيه موقعها ، اذ كان ذلك القطر جبهة الاسلام وميدان النضال بينه وبين القوة المسيحية المغيرة ، فكان من الطبيعى له أن تغلب عليه الصفة الحربية فأقطع بلاده لأمرائه وجعلهم أشباه مستقلين تحت زعامته لا يطمع منهم فى أكثر من أن يتبعوه الى الحرب ويظلوا معه حتى يأذن لهم فيعودون الى بلادهم . وكان فى كثير من الاحوال يدارى هؤلاء الامراء ويقنع منهم بأن يخضعوا راغبين تحاشيا لكثرة الاحتكاك معهم وهم قوم قد جرأتهم كثرة الحروب وضراهم النضال المستمر فلم يكن نضالهم بالهين ولا شوكتهم باللينة

ولعل انصراف صلاح الدين الى اصلاح دولته قد جعل جيرانه المسيحيين يشعرون بخفة وطأة الدولة الاسلامية ، أو لعل ظروف أوروبا ووجود حركة جديدة بها ترمى الى تعزيز كلمة المسيح فى الشام وتجديد قوة الصليبيين التى حطمها نورالدين، او لعل كلا السببين عملا معا على ان يتجرأ الصليبيون ويغيروا على ما يليهم من البلاد الاسلامية التى أخذت منهم فى مدة السنين الماضية ، ولهذا تجد أن صلاح الدين فى هذه السنوات الست لم يكن فى سلام تام ولكن أكثر الحروب التى خاضها كانت مع المسيحيين. ولم يكن هو البادىء بها بل كان فى أغلبها مدافعا

على أنه كان بين حين وحين يدخل فى نضال هين مع بعض الامراء المسلمين اما لخروج أمير من أمراء أقطاعه عليه واما لتمنع

جار عن أداء واجب تعهد به

⏥

كان أول عمل اهتم له السلطان بعد صلح سنة ١١٧٦ م محاولته القضاء على الاسماعيلية لتكرار اعتداء فتاكيهم عليه. وكان لهم قلاع بالشام أكبرها (مصيات) فذهب اليها ونهب عسكره منها غنائم كثيرة واكتفى بهذا المقدار ورجع عنهم بشفاعة خاله

وبعد ذلك بدات اول حلقة من سلسلة مواقعه مع الفرنج وكانت الحرب بين الطرفين سجالا ، ولكن صلاح الدين ابتدأ حروبه بانهزام عظيم سنة ١١٧٧م (٥٧٣هـ) عند الرملة وكان ذلك الانهزام نتيجة نقص فى الاحتراس وتراخ فى النظام عند ما كان جيشه يعبر نهرا . وقد قتل فى تلك الواقعة جماعة من أهله وأسر غيرهم ، وكان من أعز الاسرى عليه الفقيه المحارب عيسى الهكارى صديقه القديم الذى كانت له يد كبرى فى منع خروج الامراء عليه عند ما تولى الوزارة بعد موت عمه شيركوه، وقد افتداه السلطان بستين ألف دينار . وكانت كسرة الرملة ذات أثر كبير فى نفسه حتى انه ذكرها لأخيه شمس الدولة توران شاه فى خطاب قال فيه :

«ذكرتك والخطى يخطر بيننا   وقد نهلت منا المثقفة السمر»

ويقول أيضا : « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما أنجانا الله الا لأمر يريده سبحانه »

وقد أطمعت واقعة الرملة المسيحيين فساروا الى حماه وكان

صاحبها خال صلاح الدين « شهاب الدين الحارمى » ولكن حظ الافرنج كان هذه المرة أقل سعداً فانهزموا بعد أيام أربعة ، وساروا الى قلعة حارم (بقرب حلب) وهى داخلة فى دولة الملك الصالح ــ فلم يقدروا على اخذها كذلك ، ثم أغاروا على حمص واكتفوا بنهب ما وصلت اليه أيديهم

وكان صلاح الدين قد عاد الى مصر بعد كسرة الرملة ليصلح ما أفسدته تلك الهزيمة ولم يطل مكثه بها بل عاد الى الشام وكانت عودته فى الوقت المناسب لأن الصليبيين كانوا يسيرون بين حلب ودمشق فى جرأة لم تعهد منهم منذ نصف قرن . ومنذ عودته الى الشام رجحت كفة المسلمين فهزموا أعداءهم مرة قرب دمشق سنة ١١٧٨ م (٥٧٤هـ) وسار صلاح الدين بعد ذلك الى حصن كان الفرنج بنوه بقرب دمشق واسمه مخاضة الاحزان وهناك كانت موقعة كبرى سنة ١١٧٩م (٥٧٥هـ) هزم فيها الفرنج واسر كثيرا من قواد الصليبين مثل مقدم الداوية رئيس فرقة التمبل او المعبد (١) ومقدم الاسبتارية (رئيس فرقة القديس يوحنا (١)) و (هيو) صاحب طبرية وما زال

---

(١) بعد انشاء الامارات الصليبية الاربعة لم تنقطع البعوث الصليبية عن المجىء الى الشام لامداد الجيش المحارب ضد المسلمين ، ولكن بعد نحو ثلث قرن من انشاء تلك الامارات ذهب الجيل الاول من ابطال الحرب الاولى وشعر المسيحيون بالنقص الذى طرا على صفوفهم . وكان فى أوروبا منذ القرن العاشر حركة اصلاح فى الدين كانت ترمى الى اعادة الفضيلة المسيحية بانشاء الاديرة والطوائف الدينية (النساك والرهبان) على مبادىء الزهد والفضيلة، فلما انصرفت الهمة الى الحروب الصليبية كان من الطبيعى لاوروبا ان يفكر قادتها من المتحمسين ، واكثرهم من رجال الدين فى انشاء فرق من رهبان محاربين يجمعون بين فضائل الزهد والنسك وبين فضائل الانتصار للدين وكانت نتيجة تلك الحركة طوائف اكبرها طائفة التمبلار او فرسان المعبد ويسميهم العرب (الداوية) وينسبون الى التمبل او المعبد وهو معبد سيدنا سليمان حيث اقامت طائفتهم . ثم طائفة الهسبتاليين او فرقة القديس يوحنا =

صلاح الدين بعد ذلك النصر حتى فتح الحصن (مخاضة الاحزان) ودمره وألحقه بالارض • ومنذ ذلك الحين استمر الرجحان الى جانب الدولة الاسلامية وأخذ صلاح الدين خطة الهجوم ، وكان يده اليمنى فى هذه الحروب الامير عز الدين (فرخشاه) ابن أخيه (شاهنشاه) وكان بطلا أظهر مقدرة كبرى فى موقعة دمشق سنة ١١٧٨م ، وموقعة مخاضة الاحزان سنة ١١٧٩م وقد جعله صلاح الدين أميرا على بعلبك ومن هناك جعل يهوى على ما جاوره من بلاد الفرنج مثل الكرك سنة ١١٨١ م وكان من أمنع حصون الفرنج وصاحبها البرنس ارناط (رجنالد دى شاتيون) وهو من أشجع أمراء الفرنج كما كان من أقساهم وأكثرهم غدرا

وكان صلاح الدين فى أثناء هذه الحروب غير خالص من المتاعب مع جيرانه المسلمين ولكن يجب أن نذكر ان الملك الصالح وسيف الدين غازى (الثانى) بقيا على عهدهما الى أن لحقا بربهما ، وسواء أكان ذلك برا بالعهد أم خوفا من النضال الذى لا أمل فيه فان صلاح الدين لم يذم جوارهما بعد صلح سنة ١١٧٦م وكان أكبر نضاله مع صاحب قونيه وهو (قلج ارسلان) ولا حاجة بنا الى القول أن قلج ارسلان رأى بعد قليل أن الحكمة فى أن يتثنى أمام قوة جاره العظيم

= ويسميهم العرب (الاسبتارية) وينسبون الى مستشفى بناه تجار ايطاليون ونسبوه الى القديس يوحنا تبركا . وكانت الفرقة فى أول أمرها تقيم فى بنائه فأطلق عليها اسمه

وكان رهبان الطائفتين من اكبر العاملين على الدفاع عن المسيحيين بالشام مدة قرن تقريبا اذ كانوا هم العمود الفقرى لجيش الصليبيين ويعرفون بالفضل والاستقامة والزهد والشجاعة ، وقد اقر المسلمون انفسهم بذلك رغم العداوة التى كانت بين الجانبين

أعمال صلاح الدين بمصر

بين سنة ١١٧٦ م ، ٥٧٢ هـ ـ ١١٨١ م ـ ٥٧٧ هـ .

كان صلاح الدين يتردد الى مصر بين حين وحين عندما يرى يده خالية من أعمال الحرب فى الشام وما يليها ، وكان ينتهز فرصة وجوده فى تلك البلاد لكى يقيم فيها المدنية التى هى جديرة بها ، فقد كان يحس أن مصر هى الاقليم الذى يليق للمدنية بحكم ثروته وطبيعة موقعه . فان ذلك الوادى الخصب منعزل عن العالم الخارجى بصحارى تكتنفه من الشرق والغرب ، وحدوده من الشمال طبيعية لا يسهل على المغير اختراقها لاسيما فى تلك الازمنة ، فلا بد أن تكون منه دولة وأن تكون دولة عظيمة اذا وجدت من يسير دفتها تسيير حكيم خبير . وقد أدرك صلاح الدين بعينه الثاقبة وذكائه المتوقد أن عظمة تلك البلاد فى الماضى آية دالة على أنها من أصلح أراضى العالم للمدنية لو عرف أهل الحكم فيها كيف يصلون الى اقامتها من قواعدها الصحيحة . ولكن الحرب عدو للاطمئنان ، والاستقرار والمدنية لا تنبت الا فى جو من الطمأنينة التامة ، ولهذا رأى أن يجنب ذلك القطر شرور الاضطراب بقدر ما تسمح به الظروف فعمل ما فى وسعه لتحصين بلاد الشمال من اغارة الفرنج بعد أن علم

من سبقت لهم اغارة عليها أن حربه تكلفهم كثيرا · ثم رأى أن الوقت لائق لتحصين الداخل ببناء القلعة التى سبق له التفكير فيها وبناء سور حول العاصمة يقيها العدو اذا هو هبط اليها

فبدأ فى بناء القلعة بعد عوده من الشام سنة ١١٧٦ م بعد أن انتهى من الصلح مع الملك الصـــــالح وسيف الدين غازى (الثانى) وبعد أن فرغ من نهب مقر الاسماعيلية. كماتقدم ، ولكنه لم يستطع اكمال البناء فى حياته لان الحرب لم تلبث أن دعته مرة أخرى الى ترك ما فى يده من الاعمال الوادعة وخوض غمار الدماء بعد سنة ١١٨١ م وسيظل فى ميدان القتال بعـد ذلك الى وفاته

وليست القلعة الحالية التى نراها بالقاهرة هى قلعة صلاح الدين بعينها، فقد دخل عليها من التغيير شىء كثير فى مدة من جاء بعده من أسرته أولا ثم من دولة المماليك بعد ذلك، والذى تم بناؤه من القلعة فى حياة صلاح الدين هو هيكلها وبئر الحلزون الذى حفر فى الصخر الى عمق نحو تسعين مترا، وكذلك السور بين القلعة والقاهرة ـ على حافة الجبل الشرقى فى المكان الذى به (باب الوزير) . وأما سائر القلعة فلم يتم الا فى مدة الملك الكامل ابن أخيه بعد نحو ثلاثين سنة من وفاته · وقد أقام صلاح الدين سوراً آخر على حافة الصحراء الغربيـــة بالجيزة تحصينا للقاهرة من الغرب ولكن ذلك العمل كان فى مدة متأخرة بعد عام ١١٨١ م · وبناء القلعة والسور ليس مثل بناء سور القاهرة القديم ولا مثل السور الذى جدده بدر الجمالى فى دولة

الفاطميين ، فان مبانى القاهرة كانت فى الغـــالب على النمط البيزنطى منقولة عن مبانى القسطنطينية والدولة الرومانيـة الشرقية .

وأما مبانى قلعة صـــلاح الدين فكانت على النمط الفرنجى وليس ذلك بغريب فقد نشأ صلاح الدين فى الشام وحارب فيها وعرف اساليب دفاع الفرنج فى حصونهم ، فكان ذلك النمط أقرب الى نفسه ولعله كذلك كان أوفى بغرضــــه من النمط البيزنطى ، وكان يجعل عمـاله فى بنـــاء القلعة جماعات من الاسرى المسيحيين الذين كان يأسرهم فى حروبه

لكن نظر صـــلاح الدين الى الاصــلاح لم يكن مقصوراً على التحصين ، بل انه كان يرى أن أساس عظمة الدولة لابد أن يكون الشعب فانصرف الى العناية به

ولقد كان صلاح الدين بطبعه رجل سلام ومدنية ولو أنه كان ملكا فى غير تلك العصور لكان كالمأمون وأمثاله ولكنه اضطر بحكم عصره أن يجعل حياته للكفاح والنضال ، ولذلك نجـد أعمال السلم قليلة الى جانب حروبه العظيمة

فبينما كان يطهر الترع القديمة ويقوى جسور النيل وينظم الضرائب بمساعدة رجال أفاضل مثل القاضى الفاضل والعماد الكاتب كان لا ينسى الوجهة الادبية فأدخل نظاما جـديدا فى التعليم لم يكن من قبل موجوداً بمصر وذلك هو نظام المدارس

لقد كان من قبل فى مصر مدارس كبرى مثـــل دار الحكمة والازهر وجامع عمرو ولكن الاولى والثانى كانا خاصين بتعليم

أسرار الشيعة والباطنية فكان التعليم بهما مصبوغا بصبغة الدعوة الفاطمية . وأما جامع عمرو فكان في الواقع مدرسة صغيرة لا تفى بغرض التعليم العام ولهذا بدأ صلاح الدين بادخال نظام المدارس العامة التى يسمح فيها بالعلم لكل من شاء ، وبدأ فى ذلك منذ صار فى مصر وزيرا للعاضد الفاطمى • وما زال بعد ذلك يزيد فى هذه المدارس حتى صار منها كثير فى أنحاء القاهرة مبعثرة من قرافة الامام الشافعى فى الجنوب الى سوق السلاح فى الشمال، ولعل عظمة الازهر بصفته مدرسة للعلم لم تبدأ الا منذ ذلك الوقت • ولكن لم يكن فى تلك المدارس ما سمى باسم صلاح الدين ولعل ذلك كان ناشئا من خلقه المتواضع فلا نعرف الا قليلا من أعماله ما أطلق عليه اسمه قصدا

على أننا لا نستطيع أن نقول أن صلاح الدين أدخل التعليم بالمعنى الحديث والا كان ذلك انكاراً منا لروح العصر • فان التعليم الدنيوى أى تعليم الناس كيف يعرفون الحياة ويعملون فيها لم يكن القصد من المدارس فى ذلك الوقت ـ فان أكبر ما كان يدرس فيها هو القانون أو الشريعة على المذاهب الاربعة • وأما التعليم الصناعى وغير ذلك من فروع العلم المتعلقة بالحياة المادية فلم يكن ذا شأن فى تلك المدارس • بل كان متروكا الى أهل الصناعة أنفسهم كل طائفة تسير على خطتها فيه ويتعلم الصغار بالممارسة طريقة الكبار الذين سبقوهم فى الصناعة

وأما التعليم الحربى فكان فى داخل الجيش نفسه وكان كل مايتعلق بآلاته واستعمالها يتعلمه الافراد ممن نبغوا فى هذا الفن •

وكان رجال الجيش كلهم أو على الاقل جلهم من الاتراك والاكراد الذين فى خدمة الامراء فكان التعليم مقصورا على طائفتهم فيدخل الصغير الخدمة ولا يزال بها يتقلب على أنواع الاعمال ويتعلم أثناء ذلك تدريجا ما يؤهله للجندية واستمر هذا الى أن زاد الامر زيادة كبرى فى هذا السبيل عندما صار الجيش من المماليك بعد عصر صلاح الدين وصدر الدولة الايوبية

واذا قلنا أن التعليم فى ذلك العصر كان ناقصا من هذه الجهة فليس معنى ذلك أنه كان ناقصا اذا قسناه بما كان فى العالم اذ ذاك فان الواقع كان غير ذلك . لان الدولة الاسلامية كانت فى ذلك العصر هى الدولة المستنيرة ذات العلم والصناعة والمدنية الموروثة عن القرون الماضية من مدنيات الدول الاسلامية السابقة . فى حين كان العالم الغربى لا يزال ناشئا يفتح عينيه لاول أشعة النور الضئيلة .

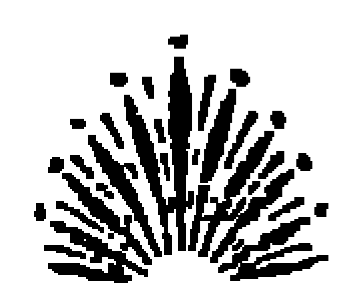
وكان للاصلاح الذى أدخله صلاح الدين أثر عظيم فى مصر بنوع خاص ، وذلك أن مصر بقيت بعد ذلك دولة محصنة قاومت الهجمات العنيفة التى صدمت العالم الاسلامى بعد ذلك بقليل عند هجوم التتار ، ذلك السيل الجارف المخرب ، واحتفظت مصر لهذا بكنز من العلم الادبى ودراسة القانون الاسلامى فلم ينحط مستوى الحياة الادبية فى الشرق عامة ، وفى مصر خاصة ، الى المستوى الذى هبط اليه فى القرون الوسطى والعصور المظلمة فى أوروبا بل بقى الشرع عاليا أمام الناس يحفظه كثير من أهل البلاد وتعلو أصواتهم بالاحتجاج على من يعبث بالناس ويخرق

القانون ، فقلل ذلك من سوء الحال أيام الاستبداد الذى هوى اليه العالم الاسلامى فى القرون آلتى تلت القرن الثالث عشر(١) .
ولعل هذا هو السر فى أن الشعب الاسلامى ولاسيما المصرى لم ينحط الى درك العبودية أو شبه الرق الذى كان فيه شعب أوروبا فى عصر جهالته . فقد كان من حفظة الشرع من ينشر على الناس احكام القانون ويعلمهم مايجب عليهم وما يحق لهم ، ومن يرفع منار القانون عاليا أمام الحكام حتى لا تضل أحكامهم ضلالا بعيدا أو تجرفهم فوضى الحروب الى الاستهانة بالحريات .
ولهذا كان الشعب دائما محتفظا بكثير من كرامته وحقوقه ، وأما ما نسمعه عن مظالم العصور التى أتت بعد القرن الثالث عشر فكان اكثرها مظالم مالية لا شخصية ، وكانت أكثر المظالم الشخصية واقعة على الامراء والجنود وهؤلاء منعزلون تمام الانعزال عن الشعب . فقد كان الامراء يوقعون بعضهم ببعض ويخترقون القانون فى أثناء نضالهم ويرتكبون الفظائع ، ولكن ذلك لم يتعد كثيرا الى الاهالى الذين كان العلماء على رأسهم حماة

---

(١) مما يجدر بالملاحظة ان الشعب المصرى فى ايام سلاطين المماليك كان بعيدا عن الاهتمام بأمر الحكم فى البلاد وكان كل الامر فى ايدى الجند وامرائهم وهم من المماليك الذين يجلبون من فيافى التركستان او جبال القوقاز . وكان الشعب المصرى آمنا فى صناعته وزراعته وتجارته لا يعبأ بشىء مادام رزقه يأتى اليه ، وكانت الارزاق على وجه العموم فى تلك الدولة تأتى اليه فى رخاء وسعة اللهم الا فى أوقات المحن وانخفاض النيل . وكانت طبقة الحكام تتنازع فيما بينها وكانت فى تنازعها تنزل الى قسوة لا يعرف التاريخ مثلها الا فى مثل تلك العصور المضطربة على أثر الحروب العظيمة ، ولكن تلك القسوة لم تتعد صفوف الجند وكان الشعب فى بعده عن الحكم آمنا وادعا الا أن حاجة الحكام الى الاموال كانت تؤدى فى كثير من الاحوال الى مظالم مالية ، فكان الشعب=

للحريات الشخصية (١) . واستمر هذا الاثر طول مدة استقلال مصر الى أن تغير الحال بعد فتح الاتراك العثمانيين لها .



= يظهر ألمه وشكواه الى جماعة العلماء الذين أصبحوا على مر الزمن رؤساءه الوطنيين وكان نفوذهم يزداد عند الشعب والحكام على حد سواء بازدياد البعد بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة . وكان السلاطين اذا سمعوا شكوى الشعب يرددها العلماء لا يسعهم الا الاجابة وازالة اسباب الشكوى فى أكثر الاحوال . ومما كان يزيد فى قوة تلك المطالب أنها كانت تتجه على لسان العلماء وهم رجال الدين فكانت الشكوى ترتفع كذلك باسم الدين . والحق أن الدين الاسلامى والشرع أو (القانون) شيء واحد فاذا قلنا ان رجال الدين كانوا حماة الشعب كان معنى هذا ان حفظة القانون كانوا حماة الشعب واذا قلنا ان الدين كان محترما فمعنى هذا ان القانون كان محترما ـ فدراسة القانون (الشريعة) كان لها أكبر اثر فى حفظ مصر من الانحطاط الاجتماعى الذى كانت أوربا تئن منه فى عصرها المظلم فى تلك القرون

(١) يذكر ابن اياس قصصا عدة عن قيام العلماء الى السلاطين وبث شكوى الناس من الضرائب ونحوها فى لغة شديدة ، وعن نزول الحكام على ما يحبه العلماء فى أكثر الاوقات

استئناف الحروب بالشام والجزيرة

لم يستطع صلاح الدين أن يبقى علىأعمال الاصلاح رغم ميله للسلم فان الظروف دعته أن يترك العيشة السلمية ويقبض على السيف مرة أخرى . فانه فى مدة الفترة التى سبق الكلام عليها فى الفقرة السابقة توفى صاحب الموصل سيف الدين غازى (الثانى) أحد المشتركين فى صلح سنة ١١٧٦ م وتولى بعده أخوه عز الدين اذ لم يكن له الا ولد صبى صغير،ورأى قواد الدولة ان تولية ذلك الصغير ذات خطر خوفا من أن ينتهز صلاح الدين تلك الفرصة فيضم بلاد الجزيرة والموصل الى دولته

ثم مات الملك الصالح أيضا سنة ١١٨١ م وأوصى أن تسلم حلب الى ابن عمه عز الدين نفسهصاحب الموصل حتى لايتمكن صلاح الدين من أخذها ، وهكذا كان بيت عماد الدين زنكى يخشى كل الخشية أن يذهب ملكه الى صلاح الدين . ومن أجل هذه الخشية كان عز الدين ومن معه من الامرآء يجتهدون فى اثارة المصاعب أمام منافسهم القوى حتى لا يفرغ لهم . ولكنهم دلوا بذلك على أنهم لم يفهموا ما انطوت عليه نفس ذلك الرجل فانهم لو سكتوا عنه لكان أغلب الظن أنه يدعهم حيث هم

فقد كان يقنع بأن يكون آمنا من ورائه بل أنه كان يكتفى من فتوحه فى البلاد التى يحكمها حاكم مسلم بأن يخضع له ذلك الحاكم فيقره على حكمه ولا ينقص من سلطته شيئا ، أما وقد حاول هؤلاء أن يخونوه باثارة المتاعب أمامه وتحريض أعدائه الفرنج عليه فقد رأى أنه لن يستطيع التفرغ لعمله آمنا الا بعد ان يأمن ناحية الشمال من قلب حلب والجزيرة . وعلى ذلك نراه ابتدأ بعد موت الملك الصالح بأن يضرب الضربة الفاصلة عند حدود دولته الشمالية

وقد كانت الظروف مساعدة له ـ لان خلافا نشأ بين عزالدين وأخيه عماد الدين زنكى (الثانى) على اقتســـــام تلك الدولة الشمالية ، واستقر بينهما الامر اخيرا على ان تكون حلب لعماد الدين والموصل والجزيرة لعز الدين وبهذا كان أمام صلاح الدين قوتان منقسمتان بدل دولة موحدة تقف فى سبيله

خرج صلاح الدين من القاهرة فى مايو سنة ١١٨٢م (٥٧٨هـ) وكان ذلك آخر عهده بها فقد بقى فى الشام فى حربه وجهاده الى أن مات سنة ١١٩٣ م (٥٨٩ هـ) وقد حدث أثناء وداعه حادث اتفق صدقه فانه كان فى مجلس وداع ينتظـر اجتماع الجيش ليسير وكان بين الحاضرين معلم لبعض أولاده فأخرج رأسه من الحاضرين كأنه يودع السلطان ، وقال البيت المشهور :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العيشة من عرار

فتطير صلاح الدين منه وتنكد المجلس وقد صدق ذلك الفأل فلم يعد صلاح الدين بعد ذلك الى القاهرة حتى مات

ذهب صلاح الدين الى الشام وبدأ باغارات صغيرة على بلاد الفرنج وحاصر بيروت حصاراً قصيرا بمساعدة الاسطول المصرى الذى أصبح عند ذلك قوة يعتد بها فى حــروبه ٠ غير أنه لم يلبث فى هذه المناوشات طويلا بل قصد الى غرضه الاول وهو حرب الجزيرة فعبر الفرات سنة ١١٨٢ م وساعده جماعة من أمراء عز الدين الموصلى ولهذا تمكن من امتلاك كثير من البــلاد بغير حرب او بحرب يسيرة . وكان عز الدين قد أوعز الى الفرنج أن يهاجموا دمشق ليفرجوا عنه الا أن صلابة صلاح الدين تغلبت فبقى على حربه وحصر الموصل ، على ان مناعة المدينة جعلته يرفع حصارها ويذهب الى بلاد أقل منها مناعة مثل سنجار فملكها وبذلك صار له أغلب بلاد الجزيرة وأصبحت الموصــل معزولة عن حلب وصار يستطيع أن يهبط الى كل منهما على حــدة ٠ فالتمس عز الدين مساعدة جيرانه من الامراء مثل شاه الارمن (وهو أمير مسلم) ولكن ذلك لم يجده كثيرا فتفرق عنه حلفاؤه بعد قليل

واستمر صلاح الدين على تملك البلاد الجزرية وشمال الشام مثل آمد وتل خالد وعينتاب وكان انتصاره فيها كما ســبق القول سهلا فى أغلب الاحوال لميل الامراء الى الانضــواء تحت لوائه المنصور وترك جانب عز الدين

وفى أثناء هذه الانتصارات على أمراء الجزيرة وشمال الشام كانت الاساطيل المصرية فى البحر الابيض والبحر الاحمر تحرز الانتصارات البــاهرة على الفرنج حلفاء عز الدين ففى ســنة

١١٨٢ م انتصر حسام الدين لؤلؤ القائد البحرى المصرى عند أيلة على رأس خليج العقبة ثم عند ساحل الجوزاء فى شمال الحجاز على جماعة من الفرنج أرسلهم البرنس أرناط (رجنالد دى شاتيون) صاحب الكرك ليوقعوا بالمسلمين الذاهبين الى الحج وقد أخذ لؤلؤ جماعة من أسرى الفرنج وأرسلهم الى «منى» لينحروا بها فكان ذلك جوابا قاسيا على محاولة ارناط الفتك بالحجاج المسلمين . وكان الاسطول المصرى بالبحر الابيض يتربص بالفرنج اذا هم قربوا من سواحله وكان كثيرا ما ينقض على سفنهم فيأسر ويغنم حتى اضطر المسيحيون الى عقد هدنة مع صلاح الدين لمدة أربع سنوات تنتهى سنة ١١٨٨ م (سنة ٥٨٤ هـ)

وقد توجت انتصارات صلاح الدين أخيرا بتملكه حلب سنة ١١٨٣ م أخذها من عماد الدين زنكى الثانى صاحبها على أن يعطيه بدلها بعض بلاد الجزيرة ـ وبذلك أصبح آمنا على حدوده الشمالية وصار عماد الدين الضعيف حاكما على غرب بلاد الجزيرة وهى بلاد يسهل عليه فتحها اذا أراد وأصبحت بلاد عماد الدين مانعا من الاصطدام بينه وبين الامير القوى الشجاع عز الدين صاحب الموصل

لم يجد صلاح الدين بعد ذلك صعوبة فى أخذ سائر القلاع الشمالية من الشام مثل حارم ـ وكان يقنع من أصحابها الامراء المسلمين بالخضوع ويصالحهم على اقرارهم على ما فى أيديهم بشرط أن يكون أقطاعا لهم وأن يكونوا هم وعسكرهم معه اذا دعاهم الى الجهاد

آخر النضال مع الموصل

هل كان صلاح الدين ليقنع بدولته هـذه ويرجع الى مصر ليضع أساس ملك ثابت الاركان ؟ أوكان لابد له من الاستمرار على الحرب الى نهايتها المرة ؟ لاحاجة بنا لان نقف طويلا مترددين عند هذا السؤال فقد كان صلاح الدين وارث دولة نور الدين وكان عليه عبء الاستمرار على جهاده مع الفرنج وما كان يقدر أن يخرج على روح العصر وينتحى وادعا مسالما ولا يزال الخلاف بين الشرق والغرب على أشد ما يكون ولم تخب ثائرته ، ولو أنه استطاع ذلك وقعد عن الحرب لاضطر الى الدفاع عن دولته بعد قليل لان الفرنج كانوا اذا شعروا بهدوء فى هجوم المسلمين قاموا الى تحقيق حلمهم القديم وهو تكوين دولة مسيحية عظيمة فى أحشاء الشرق الادنى ـ فكان صلاح الدين مرغما على أن يحارب ، ولهذا رأى بعينه الثاقبة أنه لابد أن يستعد للنضال الذى جعله قصد حياته ولم يبق أمام صلاح الدين بعد ذلك الا خطوة واحدة حتى يصبح سيد كل الدولة الاسلامية بالشـام والجزيرة فيقدر أن يهوى بتلك القوة العظيمة عـلى الصليبين فيضربهم الضربة التى كان يستعد لها طول تلك المدة ٠ على أنه لم ينس أن يجس المسيحيين بين حين وآخر وكان موضع جسه

حصن الكرك وفيه ذلك الفارس الشجاع (ارناط) ، على أنه
كان كلما حاصره عرف عجزه عن أخـــذه مع خوفه من جانب
الموصل ، وكانموقنا أنه اذا اشتبك مع المسيحيين كان النضال
نضال حياة او موت فلا يفارق أحد الجانبين عنق الآخر الابموت
واحد منهما ، ولهذا آثر ان يبدأ بعلاج البثرة التى فى جانبـه
قبل أن يلج باب النضال الهائل مع أعدائه المسيحيين . وهكذا
ذهب الى ميدانالموصلوقضى فيه ما بين سنة ١١٨٥ م ـ ١١٨٦م
(٥٨١ هـ ـ ٥٨٢ هـ) بين حصار لتلك المدينة وانصراف عنهـا
ثم عودة اليها . وكان جماعة من أمراء الجزيرة يصحبونه فلما
قرب من الموصل أول مرة سنة ١١٨٥ م أرسل آليه عز الدين
يطلب الصلح على يد جماعةمنالامراء فأرسلمعهموالدتهوابنة
عمه نور الدين محمود سيد صلاح الدين وغيرهما من النســاء
النبيلات . وهناك كان كل الناس يعتقدون أن صـــلاح الدين
لابد أن يجيب طلب هـذه الوفود لما كان معروفا عنه من رقة
الخلق ولاسيما مع النساء ولما كان مشهورا عنه من اجلاله لبيت
سيده نور الدين . ولكنه هذه المرة لم يعمل بما يوحيه اليـه
قلبه بل رأى الامر أمر دولة يجب ألا يدخل فيهإعتبارالعواطف
فجمع أمراءه فأشاروا عليه برفض الرجاء وهكذا كان ، وارتكب
صلاح الدين برفض طلب هذه الوفود خطأين أحـــدهما خلقى
والآخر سياسى وآذا كان الخطأ الخلقى لا يعنى أهـل السياسة
فانه على كل حال يعنى من يدرس حياة صــــلاح الدين الذى
لا يكاد المدقق يرى شائبه فى خلقـــه من قســـوة أو نقص فى

المروءة والشهامة.على أنه قد يغفر له الخطأ لو اعتبرنا الظروف التي كانت تحيط به وراى كبار امرائه الذين اكدوا له ان امر الدولة يجب ألا يدخل في تدبيره ضعف الرحمة أو الحفاظ . وأما الخطأ السياسى فذلك أنه رفض الصلح وهو غير عارف تمام المعرفة بحال خصمه ، وكثيرا مايطلب الخصم الصلح وهو قوى حتى يخلص من ويلات الحرب أو لعل الخصم يتظاهر بحب السلام لكي يضع خصمه أمام الناس موضع المعتــدى الظالم فيكسب عطف العالم . وعلى كل حال فقد لقي صلاح الدين جزاء تلك الغلطة سريعا ويدلنا على حسن رأيه أنه عرف خطأه بعد قليــل فعاد يلوم من أشاروا عليه بسلوك سبيل المخاشنة وتحمـــل لوم من لامه وقبح فعله مثل القاضى الفاضل مساعده الكبير بمصر . وقد نجح عز الدين بسلوكه ذلك فى استنهاض همم الناس معه فساعده عامة أهل الموصل وحاربوا مع جنوده مستبسلين . ولهذا لم يقدر صلاح الدين على أخذ المدينة وانصرف عنها مدة قضاها فى بلاد الارمن الاسلامية التي فسد أمرها بعدت موت صاحبها (شاه ارمن) فاستولى على ميــافارقين أكبر بلادها وحصونها وأقر أمراءها عليها بشرط أن يكونوا تبعا له على حسب عادته كلما فتح بلدا اسلاميا . ثم رجع الى الموصل فاستمر على حصارها وترددت الرسل بينه وبين عز الدين بالصلح فقبل أخيرا على أن يكون عز الدين تابعا له ويخطب له على منابر بلاده ويكتب اسمه على السكة وينزل له عن كل ما وراء نهـــر الزاب من بلاد الجزيرة . وهكذا استقر الامر أخيرا بين صـــلاح الدين وجاره

الشجاع عز الدين الذى يمثل البيت المجيد بيت عماد الدين زنكى . وقد حدثت فى أثناء المفاوضـــة حادثة تســتحق أن تذكر وذلك أن صلاح الدين مرض حتى أشرف على الهلاك وكان ابن عمه محمد بن شيركوه قريبا منه وكانت له اقطاع حمص والرحبة فسار الى حمص وجعل يمهد السبيل الى الاستيلاء على الحكم لو مات صلاح الدين ولكن صلاح الدين عوفى وعرف الخبر فلم يمض غير قليل حتى مات ابن شيركوه على أثر ليلة شرب فيها كثيرا من الخمر ـ وتقول ألسنة السوء أن صلاح الدين دس اليه من قتله بالسم وهو ينادمه . والحق أن المؤرخين يظهرون فى هذه القصة كثيرا من الاحتراس فيقولون دائما « والعهدة على من يقول ذلك » لانهم شاعرون أن مثل هذا العمل لا يتفق وما عرف عن صلاح الدين من الزهـد فى الدنيـا والتغاضى عن الاساءات ـ فقد كان يعرف من عدوه الغدر ثم اذا رأى نفسه قدر عليه عفا عنه ولم يحرجه بل لقد كان يحسن الى عـــدوه ويتغاضى عن واجب اساءته . فهل كان مثل هذا الرجل ليسم ابن عمه لانه سمع عنه خبر عزم على أن يملك البلاد لو مات ولم يفكر فى الخروج عليه ولا اضرام نار ثورة ؟

وهل كان صلاح الدين يخشى أن يجرد ابن عمه من أقطاعه لو صح عنده العزم على عقابه ؟ انه كان على رأس الدولة يطيعه امراؤه جميعا ويحبه اهل البلاد والعسكر على السـواء ، فما كان من العسير عليه أن يعاقب ابن عمه بأية عقوبة لو رآه مستحقا لهذا . ولئن كان قد خشى من اثارة ثورة بين أمرائه أو بين أفراد

أسرته لو أوقع بابن عمه أما كان يخشى أن يثير ثورة أكبر بمثل هـذا الغدر وتلك الخيانة ؟ على أن صـــلاح الدين أثبت اقطاع محمد بن شيركوه لابنه الصغير ولو كان الامر قد بلغ حد أن يسقى الأب السم لما كان يرعى حقه فى ابنه. وقد قال ذلك الابن علنا مرة فى حضرة صلاح الدين قولا يفيد أنه يتهمه بالاستيلاء على شيء من ميراثه لان صلاح الدين كان قد أخذ للدولة أكثر آلاته وخيله وأمواله . ولو كان هناك شك فى أن صلاح الدين شريك فى قتل أبيه لما كان تردد وله تلك الصراحـــة أن يتهمه بذلك علنا . ان الظنون تذهب فى الخطأ بعيدا فى العـــادة فما بالك وقد اتفق موت الرجل المتهم بعد جنايته فجأة . انه من الطبيعى أن يظن الناس فى الامر شيئا من الاسرار ولاســيما وقد كان ذلك العصر عصر أسرار خفية كثيرة

على أن هذه القصة تلوح لنا محض رواية خيالية فيما يتعلق بابن عمه محمد بن شيركوه ولعل هناك خلطا بين الحوادث فقد ورد ذكر مثلها عن تقى الدين ابن أخى صلاح الدين وكان بمصر، وذلك أنه أثناء مرض صلاح الدين جرى من تقى الدين حركات تدل على عزمه على الاستبداد بالملك اذا مات السلطان . فلما عوفى بلغه الامر فأرســـل صـــديقه الفقيـــه عيسى الهـــكارى وكان مطاعا فى الجند وأمره باخراج تقى الدين من مصر وأرسل فى نفس الوقت الى تقى الدين يدعوه الى الحضور الى الشـــام فعصى تقى الدين أولا وعزم على الخروج الى برقة وكان مملوكه (قراقوش) قد ملكها ولكنه عدل أخيرا وذهب الى الشـــــام

فأحسن اليه صلاح الدين وأقطعه حماه وبلادا كثيرة غـــيرها بالشام وأرمينيا ولم يعاقبه على شيء مما بدر منه بل أنه (لم يظهر له شيئا مما كان)

فاذا كان هذا سلوكه مع من خالف وحاول العصيان أيكون غدارا قاتلا مع من نوى أن يستقل ولم يتعد عمله النية ؟



الفصل الخامس

الجهاد الأعظم

عرض عام

دانت جميع البلاد لصلاح الدين من آخر حدود النوبة جنوبا وبرقة غربا الى بلاد الارمن شمالا وبلاد الجزيرة والموصل شرقا . هذا عدا تفضيل الخليفة له واعترافه بسلطانه وذلك ليس بالامر القليل . وقد كان فى ذلك مقنع لنفس ذلك الرجل لو كان يريد ملكا ونعمة ، ولكنه كان ينظر الى تلك الدولة نظرة الحارس على مافى حراسته لايرزأ منها الا مقدار اجره . ويرى ان الملك انما هو واجب عليه يؤديه بما تقتضى نفسه ويحتم شعوره بالأمانة . ولهذا كان أقل الناس تنعما بما فى يده من متاع ، ولو كان صلاح الدين فى غير ذلك العصر الذى وجد فيه لانشأ مدنية عظيمة فى مصر والشام وحواشيهما ولازال ما يعوق التقدم السلمى بما استطاع فقد كان لا يحب خوض الدماء ، وكان يكره أن يرى من يحب سفك الدماء . ومما يذكر فى ذلك أن بعض صغار أولاده طلب منه مرة بعض الاسرى ليقتله فلم يرض وزجره ، فقيل له فى ذلك فقال انه يخشى على الولد أن يضرى على سفك الدماء وهو لا يميز بعد بين المقام الذى يستلزم القتل وغيره

وكانت الحرب عنده شرا لابد منه وقد اضطر الى أن يقضي أكثر عمره في حروب ودماء وذلك لأن روح العصر كانت تقضي عليه أن يكون محاربا طول عمره . فان الصليبيين اتوا من وراء البحار تدفعهم حماسة شبيهة بحماسة الطفولة الى فتــح بيت المقدس والقضاء على الاسلام وقد نجحت صدمتهم الأولى فى تكوين دولة مسيحية ولكنها لم تكن دولة بالمعنى الصــحيح اذ كان أساسها فوق السطح غير راس على شعب فى البلاد بل عماده جماعات تأتى بين حين وحين من وراء البحارمن متحمسى الدين . ولكن الحماسة تخبو كما تخبو النار بعد شدتها ولكل عصر مشاغل وآراء والمشاغل والآراء تتغير ولهذا بدات الموجــة تضمحل على طول القرن الثانى عشر وفى اثناء ذلك كان المسلمون يرون انفسهم اهل بلاد أغار عليهم قوم من الاغراب يريدون سلب بيت يقدسونه هم كما يقدسه أولئك الأغراب وثارت عزة المسلمين من تذكر هزيمتهم أمام قوم كانوا يرونهم أقــل مدنية وأدنى مكانة وهم الذين تعودوا فى تاريخهم الماضى ان ينتصروا على سواهم من مسيحيين وغير مسيحيين فى أكثر مواقفهم وكان عصر صلاح الدين لا يزال على هــذه العقيــدة التي دفعت زنكى ونور الدين الى الجهاد . فكان محتوما على مثله أن يقود الدولة الاسلامية التى أقامها الى حيث تحــرز انتصارا جديدا

وكان الوقت ملائما لانتصار صلاح الدين فى جهــاده أكثر مما كان فى مدة من سبقه فان زنكى كان أميرا صغيرا يحــاول

صدم قوة المسيحيين فى عنفوانها وكان نور الدين يحـــارب المسيحيين وهم لا يزالون محتفظين بكثير من قوتهم وزادوا عليها فى النصف الأول من القرن الثانى عشر ان كونوا فرقتى الفرسان الرهبان وهما الداوية (فرقة المعبد او التمبل) والاسبتارية (فرقة الهسبتاليين أو القديس يوحنا) . وكان فرسان هاتين الفرقتين من اكثر المحاربين شجاعة فى الحــرب وحماسة للدين . ولهذا كانوا شديدى الوطأة فى حــــروب المسلمين

فلما اتى عصر صلاح الدين فى أواخر القرن الثانى عشر كان المسيحيون قد انهكهم طول الحرب مع المسلمين نحو نصف قرن او يزيد وكان من يأتى من وراء البحار لامداد الصليبيين بالشام لا يعوض من يفقد منهم أو على الاقل لم يكن الجديد مثــل القديم نجدة ودربة . وزيادة على ذلك قد دب الفساد فىداخل الحكم واصبح ملك بيت المقدس مثل أىملكآخر اذاتقادمالعهد على من بنوه ، تتنازعه الدسائس والأغراض وكانت بقية بيت الملك فى ايام صلاح الدين الاخيرة محصورة فى (بلدوين الرابع) أولا (وبلدوين الخامس) ثانيا ، وكان الاول مصابا بداء الجذام ضعيفا لا يستطيع شيئا ، وكان الثانى فى يد ام لم يشـــــهد التاريخ كثيرا مثلها غلظة ولا دناءة . وتشاحن الأمراء على الوصاية وكان اجدر هؤلاء الامراء واشجعهم (ريمون) صاحب طرابلس ـ الا انه بعد وصايته مدة عزل وتولى بعده رجــل احبته الملكة أم بلدوين الخامس . واسمه عند العرب (كى)

وهو (جى دى لوسنيان) ولم يلبث الطفل بلدوين ان مات ويقال ان أمه قتلته

ومن ذلك الوقت بدأ التنافس يتخذ شكلا جديدا ــ فان (كى) كان من أجمل الناس ظاهرا وادنئهم حقيقة حتى ان اخاه قال مرة : « اذا كان هذا ملكا فما اجدرنى ان اكون الها » وكان من الطبيعى أن كبار الامراء بالشام يحقدون عليه واكبرهم (ريمون) الطرابلسى . والحقد يدفع الى شىء كثير حتى الى الخيانة ولهذا يلوح لنا ان ريمون بدأ يراسل المسلمين وكانت له يد فى انهزام المسيحيين

الى جانب ريمون كان ارناط (رجنالد أو أرنولد دى شاتيون) صاحب الكرك وهو رجل من أشجع فرسان المسيحيين ولكنه كان غرا متهورا غدارا ــ فاذا كانت خيانة ريمون ساعدت المسلمين بتوطئة سبيل النصر لهم فان غدر ارناط وتهورة قد ساعدا صلاح الدين اذ جعلا الحق الى جانبه وقديما كان الحق قوة للمعتدى عليه ولو بعد حين

موقعة حطين

اذا كان صلاح الدين قد فرغ من مشاغل دولته ودانت له الامارات الاسلامية جميعا فجمع كل تلك القوة الهائلة بين يديه واستعد ليقذف بها الصليبيين فيرميهم وراء البحر الذى أتوا منه ، فان الصليبيين فى الناحية الأخرى كانوا على قلق كبير يريدون أن يقوضوا ذلك البناء المخيف الذى علا الى جانبهم يهدد وجودهم بالشام ، وكان جماعة من امرائهم يدفعهم الخطر الداهم الى الاستبسال والاستماتة فى النضال . وكان من هؤلاء البرنس ارناط صاحب الكرك

والى جانب ارناط كان فرسان الداوية والاسبتارية يتحرقون شوقا الى لقاء المسلمين لعلهم يستطيعون بهجماتهم العنيفة صدع دولة صلاح الدين . فكان بذلك المسلمون والمسيحيون على السواء متحفزين للوثوب بحماسة متشابهة وكان مابينهما جو من التحدى مملوء بالمادة الملتهبة تنتظر أول شرارة لينـدلع لهيبها فيلتهم كل شيء . ولنذكر أن هدنة سنة ١١٨٤ م التى كان أجلها الى سنة ١١٨٨ م كانت لا تزال قائمة فى سنة ١١٨٧ م

لم يكن ارناط حديث عهد بعداوة المسلمين فقد كانت جنوده تهوى على الحاج والتاجر ، واساطيله تسير فى البحر الاحمر

تلتمس الفريسة الاسلامية ، ولكنا رأينا أنه لم يجد فى تصيده الا ما لا يصاد من ذوى شوكة حادة أو ناب قاطع · وكأن هدنة سنة ١١٨٤ م طالت به فدفعه تهوره الى خرقها وكان صلاح الدين لا ينتظر الا ذلك الغدر منه ليبدأ بجهاده الذى استعد له

سارت قافلة قيل أن فيها ابنة السلطان وشيء كثير من المال وكانت القوافل تجتاز بقلعته غير خائفة واثقة من العهد الذى بينه وبين السلطان . فأهوى ارناط الى تلك القافلة وغنم منها وقتل وأسر . فلما بلغ خبر ذلك الى صلاح الدين ثار ثورة مشروعة ولم يرضه ارناط كما كان ينبغى ، فنذر السلطان أن يقتله بيده لو ظفر به وكانت تلك الحادثة هى الشرارة التى اشعلت نار الحرب التى استمرت ست سنوات ، كانت اعلام صلاح الدين تخفق بعدها على القدس وجميع بلاد الشام ، الا بضعة بلاد على الساحل

ارسل صلاح الدين يجمع الجيوش فى ربيع سنة ١١٨٧م وجعل مركز القيادة العليا دمشق فاتته الجنود من أطراف دولته وكان اول بعوثه اثنين : جعل احدهما الى الكرك بقيادته هو للانتقام ومنع ارناط من مهاجمة الحاج والوقوف فى سبيل العسكر المصرى القادم اليه ، وارسل الآخر الى عكا لكى يشغل الداوية والاسبتارية عن مساعدة الكرك . وقد نجح فى احراز غرضه من هذين البعثين نجاحا تاما . ومما يجدر بالذكر أن ريمون لم يتحرك أثناء هذا للمساعدة

فلما تكامل الجيش الاسلامى فى الصيف كان امام صلاح الدين

خطتان : الأولى أن يقف امام الصليبيين فى معركة فاصلة ، والثانية أن يتابع الخطة القديمة من اغارات متكررة ونهب وسبى بغير معركة فاصلة حتى يضعف أعداءه أولا ثم يضرب الضربة القاضية اخيرا ، ولكنه فضل الخطة الاولى ولعل اكبر ما دفعه الى اختيارها شدة حماسته فقد قال مرة : « ان الامور لا تجرى بحكم الانسان ولا نعلم قدر الباقى من أعمارنا ولا ينبغى أن نفرق هذا الجمع الا بعد الجد بالجهاد »

وهكذا سار الى طبرية فى يوم الجمعة السابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ الموافق ٤ يوليه سنة ١١٨٧ م وكان يتخير لغزواته ايام الجمعة « لتقع حروبه فى وقت تكثر فيه الدعوات والصلوات » . ثم خلف طبرية وراء ظهره وسار الى غربها عندما علم ان الجموع الصليبية جاءت ووقفت له عند جبل طبرية من جهة الغرب . ولكن الصليبيين لم يبرزوا له وتحصنوا فى مواقفهم ، فأراد أن يحرضهم على لقائه فجعل يهبط الى طبرية فيخرب فيها ويغنم ويحرق . وكان قصده من مهاجمة المدينة ان ينفر الجيش الصليبى لمساعدتها فيخرج من اماكنه فيلقاه صلاح الدين فى ميدان مفتوح وقد نجح فى ذلك نجاحا تاما فان الصليبيين تحركوا لنجدة طبرية فعاد صلاح الدين مسرعا عنها وجعل جيشه على الماء وافنى ماامامه من ماء الصهاريج وكان الوقت قيظ الصيف فلما اقبل المسيحيون لم يقدروا على بلوغ الماء الذى وراء المسلمين ولم يجدوا فى الصهاريج التى دونهم ماء فكانوا يحاربون على شدة الجهد من العطش

والحر ، ولم يستطيعوا الرجوع الى حيث كانوا خوفا من جيش المسلمين . فكان هذا انتصارا لصلاح الدين قبل أن يضرب ضربة واحدة ، وعلت نفس جنود المسلمين ووثقوا بالنصر قبل اللقاء ، فباتوا الليلة فى تكبير وتهليل بينما كان قائدهم المدرب الذكى الحذر يراقب نظام جيشه ويوقف كلّ جماعة فى مكانها استعدادا للمصاف فى الغد

وحاول المسيحيون فى اليوم التالى بلوغ الماء كلفهم ذلك ما كلفهم ، فمنعهم صلاح الدين من ذلك اذ أدرك قصدهم . وجعل يدور بهم حتى حصرهم حصارا تاما ، ولم يتمكن أحد من الخروج من تلك الدائرة الا (القمص ريمون) فى جماعة قليلة وكان خروجهم من دائرة الحصار مكيدة دبرها ابن أخى صلاح الدين ، وذلك أنه رأى أن قتال (ريمون) وجنوده قتال المستميت فأفسح لهم حتى أخرجهم من الدائرة فخرجوا وهم يحسبون ذلك نصرا ثم مالبثت دائرة الحصار بعد ذلك أن التأمت فلم يجد ريمون أمامه غير ترك الميدان والذهاب عن الحرب جملة وضعفت صفوف الصليبيين بذلك النقص فىعدد المحاربين

وبدأت منذ ذلك الحين الهزيمة ــ غير أن المحصورين احتلوا تلا عند حطين وتحصنوا به مع ملكهم (كى) وابلوا بلاء عظيما فى الدفاع عن انفسهم . وكان المسلمون يكرون عليهم بين حين وآخر فتعود الجنود منحدرة عن التل وهى تحمل من الأسرى والاسلاب شيئا كثيرا وكان من بين ماغنموه صليب الصلبوت،

وكان السلطان يبعث مافى نفسه من حماسة وثبات الى قلوب المحاربين فكانوا تحت عينيه يأتون بالعجائب من اعمال الشجاعة والاقدام ومثل ذلك ان واحدا من صغار مماليكه اخذته الحماسة عند رؤية سيده وقائده وهو صبى لم يبلغ حد الرجولة فحمل حملة منكرة على الفرنج وهو وحده فأوقع فيهم حتى تكاثروا عليه وقتلوه فلما رآه المسلمون يفعل ذلك اخذتهم الحفيظة لقتله وثاروا ثورة فصدموا جيش الفرنج صدمة زعزعته وبعد استمرار الهجمات العنيفة حينا هوت خيمة الملك بعد كرات ثلاثة واستأسر من بقى من الفرسان ، وكان النصر تاما لصلاح الدين وجنده وسجد شكرا لله وبكى من السرور . وكان بين الأسرى الكثيرين فى هذه الموقعة الملك (كى) والبرنس (ارناط)

« وكان من يرى الاسرى لكثرتهم لا يظن هناك قتلى فاذارأى القتلى حسب انه لم يكن هناك أسرى »

وقد اكرم صلاح الدين الملك وقدم اليه ماء مثلجا بعد ماوجد من جهد العطش والدفاع فشرب الملك واعطى فضله للبرنس ارناط ، فقال صلاح الدين عند ذلك : « ان هذا لم يشرب الماء باذنى » يريد أنه لم يصر آمنا من عقابه . وكان اكرامه للملك لا يعادله شىء الا تقريعه للامير الذى اثار تلك النيران وهو (أرناط) الغادر ، فقال له : «هأنا أنتصر لمحمد» وكان ذلك ردا على سب (ارناط) لمحمد ودينه فيما سبق . ثم عرض عليه الاسلام فكان ذلك سخرا بليغا ، ولكن الرجل

ابى فسل صلاح الدين النمجاة وضربه بها فحل كتفه وتمم عليه من حضر وبذلك أوفى بنذره الذى سبق أن نذره اذا هو ظفر بعدوه أن يقتله بيده عقابا لما قدم من نقض العهد . وقد اشتد خوف الملك عند ذلك وعظم اضطرابه فأمنه صلاح الدين وسكن جأشه قائلا : « لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك وأما هذا فانه تجاوز حده فجرى ماجرى » يشير بذلك الى ارناط. وأما ريمون صاحب طرابلس فقد عاد بعد انهزامه من الموقعة الى صور ثم الى طرابلس حيث مات بعد أيام قلائل

فتح القدس

بعد موقعة حطين التى دامت يومين لم يبق صلاح الدين فى مكانه بل هبط الى طبرية فى اليوم الثالث وهناك سلمت له القلعة وفى أثناء ذلك كان يبعث بمن يريد الابقاء عليهم من الأسرى الى دمشق ويفتك بمن يريد الفتك بهم وكانت يده شديدة على طوائف الفرسان الرهبان « الداوية والاسبتارية » وذلك لما كانوا يبذلون من نفوسهم فى سبيل نصر المسيح بشدة تدعمها حماسة عظيمة وايمان قوى فى عقيدتهم . ولم يلبث صلاح الدين طويلا عند طبرية بل سار الى الغرب نحو عكا فلم يبق امامها الا قليلا حتى سلمت وهكذا كان انتصار حطين يسبق صلاح الدين الى المدن فتسلم واحدة فواحدة وهى قوية على المقاومة . ومما يسترعى النظر ان صلاح الدين اعطى كل ما للداوية فى عكا لرجل من أصحابه كان على طريقة الفرسان المحاربين اذ كان فقيها محاربا وذلك هو الفقيه عيسى الهكارى

صديقه القديم . وكانت غنائم عكا عظيمة افادت جنود صلاح الدين ولو أن السلطان نفسه لم يأخذ منها شيئا ، دابه فيما كان يغنمه فى انتصاراته دائما

وبعد اخذ عكا اندفع تيار النصر بازاء الساحل فأخذ المسلمون كثيرا من مدنها من يافا الى مابعد بيروت واجتمعت فلول الجيوش الصليبية وجند الحصون الساحلية جميعها الى صور وهناك تحصنوا ووقفوا على اقدامهم مرة ثانية بعد أن جرفهم سيل الهزيمة ، وأتى اليهم امداد من وراء البحر بقيادة من يسميه العرب (المركيش) وهو (كنراد دى منتفرات) فقوى ذلك عزمهم على الدفاع

وكان صلاح الدين قد عقد النية على أخذ عاصمة الصليبيين (بيت المقدس) فبعد أن راى الوية النصر تخفق له على السواحل وراى الثغور تتفتح لجيوشه بلامقاومةغيرمدينة صور التى بدأت تتحصن وتتجهز ، سار الى قلب فلسطين واخذ كل ما كان بين بيت المقدس والساحل من حصون الداوية وأوقف على البحر رجلا من كبار قواده على رأس اسطول لكى يمنع اتيان الفرنج الى الساحل قبالة القدس وذلك القائد البحرى هو حسام الدين لؤلؤ المعروف بالشجاعة ويمن النقيبة . فلما أمن هذه الناحية من البحر القى الحصار على العاصمة وعرض على اهلها الصلح على ان يسلموا اليه المدينة نظير تعويضهم ارضا يزرعونها،ولكنهم ابوا ذلك فاستعد لاخذ المدينة عنوة ، وجعل يلتمس فى أسوارها نقطة ضعف

يهاجمها حتى وجدها بعد فحص دقيق قضى فيه خمسة أيام . وكانت نقطة الضعف التى اختارها جهة الشمال عند المكان المعروف بباب كنيسة صهيون . وكانت الجموع فى بيت المقدس كبيرة والحماسة للدفاع ثائرة ، فآثر صلاح الدين الاستعداد بما معه من قوة لاخذ المدينة سريعا قبل أن يفيق عدوه من الضربات التى توالت عليه منذ وقعة حطين ، وقبل ان يأتى امداد متوقع من وراء البحر . فنصب المنجنيقات ونظم الرماة فوصلت جنوده الى الأسوار ونقبوا فيها ثغرات ،وكانوا يظهرون فى هجومهم من البسالة مالا يعادله شيء غير بسالة المحصورين انفسهم اذ كانوا يخرجون كل يوم على خيلهم يقاتلون مستبسلين . وكان الامراء فى جيشى المسلمين والفرنج سواء فى الاقدام يحاربون فى أول الصفوف ويبعثون فى الناس الحماسة بمثلهم الحسن . وكان مقتل احد الامراء يدعودائما الى ثورة فى نفوس الجند يتردد لها صدى قوى فى اشتداد لهيب الحرب . غير أن ذلك التصادم لم يدم اكثر من أسبوع واحد ورأى المحصورون أن لا أمل لهم فى النجاة ، فأرسلوا الى صلاح الدين يفاوضونه فى شروط التسليم ، فتمنع أولا وقال انه لن يرضى بغير اخذ المدينة عنوة ليفعل بالفرنج نظير مافعلوه بالمسلمين يوم أن استولوا على القدس منذ نحو قرن ، ولكنه عاد فرضى بالصلح بعد اخذ ورد طويلين ، واتفق على شروط التسليم واكبرها أن يدفع المسيحيون ضريبة عشرة دنانير عن الرجل وخمسة عن المرأة واثنين عن الطفل ، فمن أدى ذلك

فى مدة اربعين يوما خرج ونجا ومن لم يؤده صار اسـيرا مملوكا . على انه سمح لليونان واهل الشام من المسـيحيين ان يبقوا حيث هم بين رعاياه ، وكذلك اباح للفرنج أن يقيموا فى فلسطين اذ شاءوا ، وبدأ تسليم المدينة وخروج من يريد منها فى اكتوبر سنة ١١٨٧ م . على أن صلاح الدين لم يصب مالا كثيرا من وراء فداء أسرى بيت المقدس فقد ذهب أكثره لامراء الجند الذين وقفوا على الابواب يراقبون دفع الضريبة ممن يخرج . وقد أطلق صلاح الدين عددا كبيرا من اهـل المدينة بغير فداء ، ومن على نحو ثمانية عشر الف رجل نظير ثلاثين الف دينار وزنها عنهم امير من امراء المسيحيين ، وبقى بعد ذلك عدد عظيم لا يستطيع ان يعطى شيئا وكانوا نحـو ستة عشر الفا ، فتسامح صلاح الدين تسامحا كبيرا فى امرهم وكان كثير العفو عن نساء الفرنج وشيوخهم وأطفالهم خاصة ، فأطلق لملكة بيت المقدس مالها وحشمها لم ينل من ذلك شيئا، وكذلك فعل بغيرها من كبيرات الفـرنج ومن بينهن امرأة (ارناط) نفسه ، وأكرم رجال الدين فخرج كبيرهم معاموأله وتحف الكنائس وكنوز ذات قيمة عظيمة فلم يرض أن يتعرض له بل اخذ منه العشرة دنانير المفروضة وسير مع الجميع من يحميهم الى مدينة صور

وقد بلغ عدد من دفع عنهم صلاح الدين الفداء نحو عشرة آلاف نفس عدا من اطلقهم أخوه سيف الدين الـكريم ، ورأى جماعة من المسيحيين وهم خارجون يحملون على اكتافهم من

يعجز عن السير لسنه أو ضعفه ، ففرق فيهم مقدارا عظيما من المال وحمل بعضهم على دواب من عنده . وقد أظهر صلاح الدين من التكرم ورقة القلب فى هذا الفتح مايجعلنا نرى حقيقة نفسه واضحة فانه ابى ان يغدر بأحد من فرنج بيت المقدس ولو عظم الداعى الى الغدر وكان لا يعميه تعصب للاسلام عن الرحمة بمن كانوا فى صفوف اعدائه ، بل كان يرحم المتألم وتأخذه الشفقة بالضعيف من امرأة أو طفل تجمعه به روابط الانسانية

ولهذا يظهر لنا فى ذلك الموقف بطلا ينصر جانبا مظلوما على من اعتدى عليه ولم يكن بالقائد الأعمى المندفع الى القتل والعداوة بغريزة القوة والحقد ، فكان فى ذلك نقيضا واضحا لما كان عليه الصليبيون عند فتح بيت المقدس سنة ١٠٩٨ م

وبعد أن انتهى خروج من اراد الخروج من المدينة دخل بجيشه اليها منصورا وكان ذلك يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٢ هـ . وجعل يصلح ما افسده الحرب والحصار وبدأ فيها الاصلاح بأنواعه فأعاد الابنية الى اصلها بعد أن كان الصليبيون حوروا فيها بحسب أذواقهم وحاجات تعبدهم واقبل على المسجد الاقصى فأرجعه الى حاله الاولى وجعل فيه منبرا كان قد أعده نور الدين محمود بعناية كبرى لينصب بالبيت المقدس اذا فتحه « فكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة » ثم جعل يحسن المسجد

وينمق فيه بأنواع النقوش والفرش بالرخام الثمين والتمويه بالذهب ثم اقبل على الاصلاح الاجتماعى جاعلا المدارس محل الأساس من البناء سيرا على سنته التى اتبعها فى مصر . وبعد ان قضى زمنا يسيرا فى الاعمال السلمية والاصلاح ذهب الى اتمام عمله فى الحرب فقصد الى صور

حصار صور ورفعه وفتوح

سنة ١١٨٨ م - ٥٨٤ هـ

كانت صور حصينة بموضعها وزادها منعة ماقام بهالمركيش (كنراد) من حفر الخندق حولها حتى اصبحت كالجزيرة ، وكانت مثل الكف او الراس بارزة فى البحر ويصلها بالساحل طريق كالعنق أو كالساعد وكانت الحرب عند ذلك العنق المتصل بالساحل من اشق الامور على المسلمين اذ كانت الجنود تحاربهم من المدينة امامهم والسفن تحاربهم من البحر من جانبى العنق . فراى صلاح الدين انه لا يستطيع اخذ المدينة الا بمساعدة الأسطول فأرسل الى اسطوله المصرى لذلك الغرض ، ولكن قلة عدد السفن التى اتت مكنت الصليبيين من هزيمة المهاجمين ، وبذلك راى صلاح الدين ان يترك حصارها ، وكان هذا الخذلان مشددا لعزائم الفرنج بعد انهزامهم الكبير عقب حطين . وقد قضى الشتاء من عام ١١٨٧ م فى راحة من الحرب فلما بدأ الربيع من عام سنة ١١٨٨ م كان عليه ان يعود الى الحرب وقد تنفس عدوه راحة مدة طويلة

وفى اوائل سنة ١١٨٨ م - ٥٨٤ هـ . قام ببعض غزوات

انتصر فيها انتصارات صغيرة وكانت نتيجتها زيادة تمكنه من الساحل ودخوله الى الاقليم التابع لانطاكية ، وكذلك زيادة تمكنه من الاقليم الواقع بين بيت المقدس والبحر ، وكان لا يزال به بقايا حصون الداويه والاسبتاريه أبطال الصليبيين . وقد انتهت حرب أول سنة ١١٨٨ م بهدنة مع أمير انطاكية (بوهمند) وهو أكبر الأمراء الباقين من دولة الصليبيين . وكان شرط الهدنة لمدة ثمانية شهور نظير أن يطلق بوهمند من عنده من الاسرى . وكان غرض (بوهمند) أن تأتى اليه بعد تلك الفترة مساعدة من أوروبا كما كان غرض صلاح الدين التفرغ للميدان الجنوبى ، فذهب توا اليه لمساعدة الجيوش المحاصرة لقلاعه وفتح اكبر ما بقى من تلك القلاع وهى الكرك والشوبك وصفد وكوكب . وكان صلاح الدين كلما فتح بلدا من تلك البلاد تسليما بغير حرب اذن لاصحابها بالرحيل عنها وكانوا جميعا يختارون مدينة صور . وقد لام كثيرون تلك السياسة وقالوا انها كانت غلطة من صلاح الدين وقصر فى النظر اذ مهد السبيل الى جمع عدد عظيم من المحاربين فى مدينة صور وبذلك خلق لنفسه قلعة حصينة معادية له على الساحل تستطيع مقاومته بمن رحل اليها ، ولكنا يجب الا ننسى انه عندما اوسع صدره لكل من يسلم وأباح ذهاب من احب الى مدينة صور ، قد شجع اعداءه على التسليم بغير حرب وقلل بذلك من ضحايا القتال

وكذلك يجب الا ننسى انه كسب بسياسته شيئا كبيرا وهو

تطهير الداخل من اعدائه وحشدهم جميعا فى جهة واحدة على الساحل ، والحصون الداخلة فى البلاد لاشك اشد خطرا لو بقيت على المقاومة من حصون الساحل لأن الاولى تتخلل دولته وتهدد كل حركاته . وأما حصون الساحل فيمكن الوقوف دونها ومنع من فيها من ولوج البلاد مع شيء من المراقبة الدقيقة ولا يستطيع قوم البقاء فى الساحل الا مع استمرار الامداد وتوالى النجدات من الخارج وهذا لا يمكن بقاؤه الى الابد اذ ان حماسة القوم لابد تخبو متى ادركوا ان موقفهم غير طبيعى ولا ينتظر منه نجاح . فكأنه كان واثقا ان دفاع صور لن يدوم بل لابد من سقوطها متى طال عليها الزمن وانقطع عنها مايكفيها من الاقوات والامداد من الخارج ولعل هذا يبرر خطته التى يلوح على ظاهرها انها كانت غير سديدة



الفصل السادس

سقوط عكا

الحملة الصليبية الثالثة

لقد مر نحو قرن على الهزة العظيمة التى اهتزتها اوروبا أيام البابا (اربانوس الثانى) وذهبت أجيـــال من الناس بعد ما سمعوا خطابات الناســك بطرس يســتفز الى تخليص بيت المقــدس من المسلمين ونصرة الصليب . وقد اتى ذلك القرن الذى مر منذ تلك الأيام بتغير عظيم فى أوروبا فكانت الحيــاة الجديدة تتمشى فى شــعوبها وكانت فوضى نظام الاقطاع تكاد تنجلى غبرتها عن حكومات جديدة وكانت عقول اهلها تستقبل العلم القديم الذى اندثر ودفن قرونا عدة وهى تحسبه شيئا جديدا فأخذت تتذوق لذته . ولكن مع كل هذا التغير بقى فى أوروبا شيء كبير من الدافع الأول الى نصرة الدين . ونشأت منه حملة جديدة وهى المعروفة بالحملة الصليبية الثالثة وأنا لنلمح فيها اثر التغــير الذى طرأ على اوروبا ولو ان الظواهر كلها تخدع وتفهم النــاظر السطحى ان هزة أوروبا فى أواخر القرن الثانى عشر هى نفسـها التى اهتزتها من قبل فى أواخر القرن الحادى عشر

ماكانت تنقضى سنة من القرن الثانى عشر منذ سنة ١١٠٠ م

بغير أن ترد الى الشـــام وفود من الحجاج المتحمسين بعضهم رجل مسن او امرأة عجوز او طفل صغير وبعضهم شاب او كهل يلتهب شوقا أن يجد الشهادة فى البلاد الطاهرة وهو يقتل المسلمين ، غير أن تلك الوفود ماكانت فى العادة تأتى للحرب قصدا بل كانت اذا وجدت حربا اشترك من يقدر من رجالها وشبانها فيها وكانت الحروب لاتفتر سنة واحدة لاسيما بعد ان نبغ عماد الدين زنكى اتابك الموصل ، وبدأ سيرة جهاد طويل استمر فيه ابنه نور الدين محمود وتلقى من بعدهما ســـيف الجهاد صلاح الدين

غير أن بعض الحوادث كانت تثــير فى أوربا حماســة فوق المعتادة فعندما أخذ الشهيد عماد الدين مدينة (الرها) ثارت فى أوربا ثورة اججهــا بعض نوابغ رجال الدين مثل القديس (سان برنار) وكانت نتيجتها حملة عظيمة يعدها التـــاريخ (الحملة الثانية) متجاهلا ماكان بين الحملة الاولى وبينها من وفود الحجاج والامداد العسكرية التى كانت كما قدمنا تفد بين حين وحين الى الشام . وكذلك ماحدث فى أواخر القرن الثانى عشر ، فقد كانت الجنود تتوالى فى مجيئها الى الشام لنصرة جنود المسيح بالشام أو للأغارة على مصر بعــد أن اصبحت قاعدة دولة صلاح الدين ، ولكن التاريخ لايسمى هذه الحملات والامداد بل يمر بها لايعدها

فلما سقط بيت المقدس فى يد صلاح الدين بعد وقعةحطين وما تلا ذلك من الانتصار على الساحل وفى الداخـــل ، قامت



ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا

(الانكتار)

قيامة من عويل واستصراخ فى أوربا وأجج رجال الدين النيران كما كانت العادة دائما اذ كانوا أكثر الناس تحمسا للحرب وتخليص بيت المقدس من يد أعداء المسيح ، وبالغوا فى استنهاض الهمم واثارة النفوس حتى غضب للدين مئات الالوف وقام على رأسهم أمراء وملوك وكانت على أثر هذا حرب عظيمة يسميها التاريخ الحرب الثالثة . ويحسن بنا أن نمر سريعا على ذكر الوفود الكثيرة التى بادرت للنجدة آتية من بلاد مختلفة من بلاد البحر الابيض المتوسط فى الجنوب الى بلاد الدانمرك والفلندر فى شمال أوروبا

ولكن لابد لنا من شىء من الاطالة عند ذكر ملوك ثلاثة جاءوا متأخرين بعد هذه الوفود يلبون دعوة المستصرخين ، وهم الامبراطور (فردريك) المعروف بلقب (بربروسا) امبراطور الدولة الرومانية ويسميه العرب ملك الالمان ، والملك ريكارد (قلب الاسد) ملك انجلتره ويطلق عليه العرب اسم (الانكتير أو الانكتار أو الانكلتار) (وفيليب أوجوست) ملك فرنسا ويطلق عليه العرب اسم (الفرنسيس) . أما فردريك فقد كان امبراطورا على دولة عظيمة تشمل ولايات ألمانيا من الشمال وبلاد نهر الرين من الغرب وايطاليا من الجنوب وكانت فى بلاده مشاغل كثيرة أكبرها مسألتان عظيمتان الاولى نضاله مع أمرائه الاقطاعيين والثانية نضاله مع الرئيس الدينى وهو البابا . وقد نجح فردريك نجاحا لا بأس به مع أمراء ألمانيا الذين كان نفوذهم قبل توليته زاد زيادة تضاءل الى جانبها سلطان الامبراطور ،



الفرنسيس (فيليب أوجست ملك فرنسا)

وبعد نضال دام سنين طويلة أمكنه أن يعلى اسم الحكومة المركزية ودان له أكبر أمراء الدولة • ولكنه لم يلق مثل هذا النجاح فى نضاله مع البابا فقد أدى النضال الى حرب كانت سجالا بين الجانبين وانتهى أمره بأن سوى الامر وتصالح الرئيس الدينى مع الرئيس الدنيوى وكان من شروط الصلح أن يتفق الاثنان على من يعاديهما

ولعل أكبر من كان عدوا فى نظر البابا ونظر هـذا العصر هو الاسلام حيث كان سواء فى الشرق أو فى الغـــرب فكان الامبراطور يحب أن يقوم الى حرب المسلمين لكى يعلى من شأن نفسه ويزيد من هيبته وسلطانه وكان البـابا كذلك يحب أن تنصرف قوة الامبراطورية الى حرب دينية يصدر الناس ويردون فيها عن كلمته هو اذ كان لا يدفع ولا ينازع فى رئاسة الدين

ألا يلمح الانسان فى هذه الحرب الصليبية دافعا غير الدين والحماسة له والاخلاص للجهاد فى سبيل المسيح ؟ انا لا نستطيع أن نتجاهل الفرق العظيم بين الحالة النفسية فى عصرى الحملة الاولى والحملة الثالثة • فقد قامت الحملة الاولى تلبية لدعـــوة الكسيوس امبراطور الدولة الرومانية الشرقية وهو مخالف لغرب أوربا فى الدين ولكن حماسة العصر وفكرة الدين غلبت كل شيء فى سبيلها

وأما الحرب الثالثة فلم تكن حماستها الدينية مثل الحماسة الاولى بل دخلتها عناصر دنيوية أخرى

وها نحن نرى للبابا غرضا من تشجيعها وللامبراطور كذلك

غرضا غير وجه الدين والدفاع عنه

وأما (الانكتار) ريكارد فقد كان ملك انجلتره ولو أنه لم يقم فى تلك البلاد ويسميه قومه بالملك الغائب وكان من سلالة امتزج فيها دمان : الاول دم النرمان أبناء وليم الفاتح الذى غزا انجلتره فى القرن الحادى عشر، والثانى دم الفرنسيين أمراء انجو

وكان هناك فى ذلك الوقت نضال كبير بين ملوك انجلتره وملوك فرنسا على كثير من ولايات فرنســـا كل منهما يدعى فيها حقا ولكن فى مدة (فيليب أوجست) و (ريكارد) بدأت كفة فرنســا ترجح وجعلت انجلتره تسير فى اول طريق نموها الطبيعى وهو تكوين قومية منعزلة فى جزائرها وانماء نظامها الدستورى تدريجا على يد امرائها الذين بدؤا يعدون انجلتره بلادهم بعد أن كانت نظرتهم الى فرنســـا أولا انها منشؤهم ووطنهم . وكان ريكارد من أشجع النـــاس على أنه كان من أغلظهم كبدا ولم يكن بالقديس ولا الذى يعبأ بأمر الدين كثيرا فذهب الى الحرب الصليبية محاربا بيده (بلطته) أو رمحه ومعه رماته وفرسانه وهم يلتمسون جميعا فى الشام النصر والمجد الذى التمسه أجدادهم فى ميادين أخرى . ولكن ميدان ذلك الوقت كان مع المسلمين فى الشام

واما (الفرنسيس) (فيليب أوجســت) فقد كان من سلالة الاسرة الفرنسية الكبيرة التى أولهــا (هيوكابيه) وقامت فى فرنسا على انقاض دولة أبناء (شارلمان) ، وكانت مدة اسرة (هيوكابيه) يشغلها نضال دموى بين الامراء الاقطاعيين وبين

بيت الملك وكان الانتصار فى أول الامر للامراء حتى لم يكن للأوائل من بيت (كابيه) الا ملك اسمى ، ولكن بدات الكفه ترجح الى جانب الحكومة المركزية وأخـــذ الملوك يزيدون من نفوذهم وملكهم حتى جاء فيليب اوجست فكان من أكبر من عملوا على اضعاف شوكة الامراء وزيادة نفوذ الملك · وكان انتصاره على أدرائه بفرنسا وعلى منازعيه ملوك انجلتره مما جعله من أكبر ملوك أوروبا الذين توجـه اليهـم الدعوات اذا ازمة ازمت ولهذا قام فيليب الى نصرة الصليبيين بالشام بعد أن هـدأ له الامر فى داخل بلاده · غـير أنه ما كان ينظر الى الحرب الا نظرة ملك عظيم يجب عليه ألا يتخلف عنمهمة تحرك لها غيره من العظماء ولن يلبث أن يعود الى بلاده التى كانت فى نظره محل أداء واجبه ولينس بلاد الشام

كل ذلك يظهر لنا أن الذين كانوا زعمــاء الحرب الصليبية الثالثة لم يهبوا هبة مضطربة صاخبة مثل هبة الحرب الاولى بل ساروا لغرض مدبر وقصد معين . كل يرمى من ناحيته الى هدف يبغى أن يصيبه .

على أننا لا نقدر أن نقول أن الحماسة كانت غير متأججة فى نفوس المحاربين ، فان الحماسة بين عامة الجند كانت عظيمــة ثائرة للجرح الجديد وهو الاستيلاء على بيت المقدس وســواه من البلاد التى كانت للمسيحيين مدة قرن ثم استولىالمسلمون عليها ، ولــكن تلك الحماسة لم تكن بها شدة الحماسة الاولى ولا مرارتها

ولا يسعنا اذا راينا ما تخلل تلك الحرب الثالثة من المداعبات بين المسلمين والمسيحيين ومن المزاح أحيانا ، وما كان بين ملوك هؤلاء وأولئك من التقدير والتفاهم أحيانا والاجلال المتبادل — نقول لا يسعنا اذا راينا ذلك الا أن نعد تلك الحرب ميدانا للمسابقة بين الشرق والغرب كل يريد أن يظهر صلاحه وقوته فلم تكن كلمة اليوم بها مثل كلمة اليوم فى الحرب الاولى:

ليس بينى وبين قيس عتاب   غير طعن الكلى وضرب الرقاب



حصار عكا

اجتمع من اجتمع من الفرنج فى صور وأوقف صلاح الدين تجاههم جماعة من رجاله يراقبونهم • وكان يعرف أنه قد ارتكب شرا بسماحه للفرنج أن يذهبوا الى صور من كل جانب ولكنه فى الوقت ذاته كان مضطرا الى ذلك بحكم السياسة ، فكان ذلك فى نظره أهون الشرين ـ وما كان مخيرا الا بين هذا وبين ان يستبسل له كل حصن ويضيع عليه الوقت فى حصارات لاعد لها . وعلى اى حال لقد أصبحت صور مجتمع بقية فرسان الصليبيين ، وزادهم قوة من انضم اليهم من وراء البحر • ولما شعروا بقوة عددهم وأن صلاح الدين لايستطيع حصار مدينتهم جعلوا يخرجون بين حين وحين الى ماجاورهم من البلاد وكان صلاح الدين يدبر لهم الكمائن والبعوث تمنعهم من أن يفسدوا شيئا من بلاده ، وأخيرا استقر رأيهم على أن يذهبوا الى عكا لاسترجاعها فيكون بذلك لهم مينتان عظيمتان على الساحل الاوسط

كان صلاح الدين عند حصن الشقيف فى الجبل ينتظر أن يأخذه فبلغه خبر سير الفرنج من صور نحو عكا • فظن ذلك خديعة منهم يريدون صرفه عن الحصن الذى هو دونه ، فتريث

حتى عرف أنهم جادون فى السير نحو عكا . فأسرع بمكاتبة الامراء ليأتوا اليه ، فاجتمع اليه جيش عظيم وجمع مجلسا حربيا ليختار طريق السير ، أيساير الفرنج على الساحل ويقاتلهم قبل بلوغ عكا أم يلقاهم هناك على المدينة بعد أن يسلك طريقا فى الداخل مارا بطبرية ، فاختار أمراؤه الخطة الاخيرة فهى أهون ، وكان هو غير راض عنها لأن الفرنج متى تركوا آمنين حتى يصلوا الى عكا أمكنهم اختيار المكان اللائق والتحصن حوله فيصعب بعد ذلك حربهم . ولكنه على كل حال اتبع ما أقره المجلس على حسب عادته ـ فقد كان رأى امرائه أكبر من أن يهمله ، وكانت نتيجة ارغامهم على سلوك خطة معينة أخطر من أن يجربها ذلك السلطان العاقل ، فالحق أن سلطته كانت قائمة على قوة شخصه ونفوذه فى أمرائه أكثر مما كانت قائمة على سلطان دولة مركزية قوية

وكان أول هم صلاح الدين عند بلوغه عكا أن يرسل اليها الامداد بعثا وراء بعث قبل أن يستفحل أمرحصار الفرنج لها

واصبحت المدينة بعد زمن قصير محصورة بالفرنج تحت قيادة ملكهم (كى) والامير الكبير المركيش (كنرآد) ونزل حول الفرنج من الخارج جيش صلاح الدين وكان البحر مفتوحا يمد الفرنج من جهة بما يأتى مع أساطيلهم ، ويمد المدينة خفية لأن أسطول الفرنج فى البحر كان عند ذلك أقوى من أسطول المسلمين .

وهكذا اجتمعت كل قوة الفرنج وكل قوة الدولة الاسلامية

عند عكا فى أغسطس سنة ١١٨٩م شعبان ٥٨٥هـ فكان ماحولها ميدانا واسعا فى البر والبحر ظهرت فيـه من الجانبين آيات باهرة من الشجاعة والتضحية ، وأتى الافراد فى كلا الجيشين أجل أعمال البطولة الخارقة للعادة . حقا لقدكان سباقا عظيما بين الشرق والغرب وقد ظهر فيه كلاهما بمظهره الاسمى كل بحسب طبعه ، وكان كلا الجانبين المتسابقين من جانبه جليلا

واستمر النضال هناك عامين حدث فى خلالهما معارك كثيرة بعضها كبير وبعضها صغير الى أن جاء فيليب ثم ريكارد فى ربيع سنة ١١٩١ م ـ ٥٨٧ هـ . فأصبحت قوة الفرنج أكبر من أن يغلبها صلاح الدين فآثر ترك المدينة اليهم فسلمت بعد قليل فى يوليه سنة ١١٩١ م ـ ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧ هـ . وقد تقلب ذلك النضال بين المتحاربين وحدثت فيه فترات ، ولهذا يحسن تقسيمـه الى أدوار ثلاثة : الاول من أول الحصـار الى هجوم شتاء سنة ١١٨٩ م ـ ٥٨٥ هـ . والثانى من ربيع سنة ١١٩٠م ـ ٥٨٦هـ الى أول شتاء سنة ١١٩٠م . والثالث من ربيع سنة ١١٩١ م ـ ٥٨٧هـ الى سقوط المدينة

الدور الاول للحصار

حدث ماتوقعه صلاح الدين ـ فعنـد ما ذهب الى عكا كان الفرنج قد اختاروا مكانهم وحصروا المدينة حصارا تاما وكان عددهم الفى فارس وثلاثين ألف راجل فكان هم صلاح الدين الاول أن يجعل فى الحصار ثغرة يستطيع أن يصل بها الى المدينة بالجنود والاقوات حتى تقدر على المقاومة . وانفتح الطـريق

اخيرا الى المدينة بعد أن لقى صلاح الدين مشقة عظيمة من مقاومة الفرنج له . وكان كثير الاهتمام أثناء هذا حتى لقد بقى ثلاثة ايام بغير أكل الاشيئا يسيرا . ولكن الفرنج جعلوا يعاودون الكرات حتى يتموا الحصار مرة أخرى فكانت المعارك تحدث كل يوم حول الاسوار ، وهنا نلاحظ أمرا يمكن أن ندرك منه روح الحرب بين الطائفتين فقد جعل الحرب بين جنود المسلمين والفرنج شبه تعارف ومودة ـ وما أغرب ذلك ـ فكانوا بين الهجمات العنيفة يضعون السلاح ويتحدث الجماعة من المسيحيين الى الاخرى من المسلمين . وقد يغنى البعض ويرقص البعض . بل لقد كانوا يمزحون كما فعلوا مرة اذ أتو بصبيين : أحدهما مسلم ، والآخر مسيحى . ووقف الجانبان ينظران الى نضالهما حتى تغلب المسلم وقبض على أسيره المسيحى فافتداه بعض الفرنج المازحين بدينارين . وهكذا كان الناس من الطائفتين يقطعون بعض وقتهم فى فترات الحرب ـ أحقا كان فى هذه الحرب مرارة الجهاد وتجهم الحقد المتأصل فى النفوس وعبوس العداء الذى كانت تمتاز به الحرب الصليبية الاولى ؟

لسنا مبالغين اذا قلنا أن عصر الحرب الصليبية الحقيقية كان قد انقضى منذ أوائل القرن الثانى عشر ولم يبق الا نضال دنيوى يدافع فيه المسلمون عن بلادهم ويحاول الفرنج أن يبقوها فى يدهم اباء وأنفه أن يكونوا مخذولين وحذرا من معرة الهزيمة . وقد بلغ النضال أشده فى هذا الدور من الحصار بعد نحو شهر ونصف من البدء فيه فدارت رحى أشد

معركة شـــهدتها أســـوار عكا . وتقلب فيها الحظ بين الجانبين ولكن ثبات السلطان واخلاص أهل بيته وشـــجاعتهم وانقياد أمرائه لأوامره ـ كل ذلك جعل النصر للمسلمين بعد أن قتل من الجانبين عـدد عظيم ـ ولكن قتلى الفرنج كانوا آلافا قيل سبعة

وبعد هذه الموقعة جمع السلطان مجلسا حربيا كعادته وكان يرى أن هذه الصدمة الاولى لا بد تؤثر فى نفوس أعدائه فاذا تابع الهجوم كان رفع الحصار عن عكا محققـا ، ولـكن أمراءه رأوا تفضيل الراحة بعد وقوفهم عند عكا نحو خمســين يوما فنزل على رأيهم وكان هـــذا من غلطاته لأن الراحة أفادت الصليبيين أضعاف مبا افادت المسلمين . ولم يستأنف بعدتلك الراحة قتال جدى فى هذا العام لدخول الشتاء فاكتفى صلاح الدين بادخال المؤن والرجال الىعكا ، وسرحجنوده لمدة الشتاء الذى تكثر فيه الامطار وتتعذر الحركات،وتراجع بباقى الجيش الى الخروبة تخلصا من عفونة الميدان الذى حول عكا لما كان به من جثث القتلى. ولم يكن خالى البال فى أثناء راحته لأنهكان يتوقع مجىء الامداد الى عدوه من أوروبا وكان كل يوم يتطاول به الحرب يزيد من توقع العجز عن رفع الحصار

وكان أكثر ما يرد اليه من أخبار الفرنج يدل على مســير ملك الالمان (فردريك برباروســا) فى جيش عظيـم لنصرة الصليبيين .

الدور الثاني للحصار

بعد انقضاء فصل الشتاء ارسل صلاح الدين الى أطراف دولته الواسعة يدعو أمراءه لاستئناف القتال فى الربيع من سنة ١١٩٠م ـ ٥٨٦هـ فأتت اليه الكتائب يلى بعضها بعضا وجاءته مساعدات من الخليفة ببغداد ٠ وقد استعد هذه المرة بالنفاطين والزراقين الذين يرمون النيران والنفط على آلات الحصار. وقد أبلى فى ذلك الشأن بلاء حسنا شاب من صناع دمشق فانه أدخل من التحسين على صناعة النار ما جعلها تحرق آلات الحصار المنيعة التى كان الفرنج يطلونها بطلاء يمنع تعلق النار بها ٠ وكان أشد الآلات على المدينة الدبابات وهى أبراج عالية ذات طبقات يركبها الجنود وتسير على عجل وفى مقدمتها حديد قوى فتصطدم بالاسوار فتصدعها ثم يعمل الجنود المجتمعون بها فى الاسوار فيهدمونها

وقد تمكن ذلك الشاب المجتهد من احراقها باختراع سائل يرميه اولا فى قدور على هذه الدبابات المدرعة ثم يقذف بعد ذلك النار فيلتهب ذلك السائل ولا يقاوم ناره شيء

وقد تأخر وصول الاسطول المصرى الى ما بعد أن استؤنف القتال ولهذا وجد صعوبة فى الوصول الى الميناء ولم يصل اليها الا بعد أن قام صلاح الدين بهجوم عام من الخارج فى البر ليشغل جنود الفرنج فيخفف بذلك الضغط عن البحر، فدارت معركة برية بحرية فى وقت واحد وانتهت بانتصار عظيم ودخل الاسطول المصرى عكا محملا بالمؤن والمحاربين ٠ وكان

صلاح الدين يجد فى الحرب خاشيا من وصول ملك الالمان بالمساعدة المنتظرة ، ولكن لحسن حظه كانت حملة ملك الالمان غير موفقة

فقد سار فردريك باربا روسا عن طريق البر من المانيا مخترقا بلاد المجر الى البلقان والقسطنطينية . وكانت تلك الخطة فى الواقع خطة غير ممكنة لأن سير جيش عظيم فىالبر لا بد يؤدى الى احتكاك كثير مع الاهالى ولا سيما فى الدولالتى يوجد فرق بين مذهبها الدينى وبين مذهب الغربيين وهذه عامة أمم البلقان

فما زال الجيش يجد صعوبة بعد صعوبة حتى وصل أخيرا الى القسطنطينية وكان ملك القسطنطينية هذهالمرة غير محتاج الى الصليبيينبل لقد كان يخشى زيادة اعدادهم عنده ويكرهأن يجوسوا خلال بلاده ـ ولم يكن سلوك الجيش الالمانى سلوكا يطمئنه على سلامة بلاده فقد أوقعوا شيئا من النهب فيها وطلبوا منه كثيرا من الاموال كأنهم فى بلاد معادية .وكان عند (فردريك) نفسه سوء ظن بالامبراطور الشرقى وهذا ماجعله يطلب منه الرهائن على حسن نيته،ولعلهذا يفسر لنا الخطاب الذى أنفذه امبراطور القسطنطينية (ايساكوس) الى صلاح الدين يذكر له كرهه للالمان وولاءه له . نعم لقد تغيرت الاحوال منذ تلك الايام التى كانت القسطنطينية تطلب مساعدة غرب أوروبا على المسلمين أيام أثار (الكسيوس) نيران الحرب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر

وبعد صعاب جمة عبر (فردريك) المضائق الى آسيا الصغرى وهناك لقى أشد الصعاب من التعب والجوع من جهة ومن المرض من جهة أخرى ومقاتلة فرسان مملكة الروم الاسلامية وملكها(قلج ارسلان)من جهة ثالثة. وقد جاءت الضربة القاضية لذلك الجيش أخيرا اذ مات عميده الامبراطور (فردريك) فى نهر فى شرقى آسيا الصغرى . قال جماعة مات غرقا ويقول متحمسو المسلمين أنه غرق فى ماء لا يتجاوز علوه نصف علو الرجل لاظهار يد الله فى الامر . ويقول جماعة آخرون بل مات اذ نزل الى ماء النهر وكان شديد البرد ليستحم فيه عقيب تعب عظيم فمرض من ذلك وقضى المرض عليه

▱

سمع صلاح الدين أولا بالاخبار المروعة وهى اقتراب جيوش فردريك من بلاده عند وصولهم الى شرق آسيا الصغرى وبلاد الأرمن فاتخذ الحيطة وهو القائد الحذر ، فأرسل جماعة كبيرة من أمراء جيشه ليرابطوا على منافذ الشام من الشمال، وحاول أن يهدىء الناس مما نالهم من الفزع لهذه الاخبار ولكنه حاول عبثا فبدءوا يخزنون الاقوات ويستعدون للشدائد ولكن مالبث أن أتته أخبار الضعف الذى انتاب ذلك الجيش العظيم فتنفس الصعداء وفرح الناس بذلك وما زالت الاخبار ترده كل يوم بزيادة الضعف الى أن عرف أخيرا أن فلول ذلك الجيش قد لجأت الى انطاكية وكانت البقية من الجيش العظيم ليست مما يحسب له حساب كبير

وقد شعر الفرنج الذين حول عكا بنقص جنود صلاح الدين عندما أرسل بعض أمرائه الى الشمال لحمايته من جيش (فردريك) فأحبوا أن ينتهزوا الفرصة وهاجموا الجهة التى نقصت جنودها نقصا كبيرا وهى ميمنة جيش صلاح الدين وكان عليها أخوه الملك العادل فدارت هناك معركة عظيمة تعرف باسمه وهى المعركة العادلية

واستمر النضال أكثر النهار واشترك فيه المحصورون فى المدينة فانهم خرجوا على الفرنج من ورائهم أثناء المعركة فتم النصر بذلك لصلاح الدين وقتل من الفرنج عدد كبير يقدره المسلمون بنحو ثمانية آلاف فكان هذا النصر من جهة وأخبار ضعف الجيش الالمانى من جهة أخرى عاملين على فرح عام فى جيش المسلمين زادت له الروح المعنوية فى عكا مع أن الحصار كان قد أثر فى رخائها تأثيرا كبيرا . وهذه الموقعة العادلية اكبر مواقع الدور الثانى للحصار ولكن اذا كان الفرنج قد لحقتهم هذه الهزيمة فانهم احتفظوا بكثير من ثباتهم بقية الصيف ولا سيما وقد جاءتهم أولى مساعدات الصليبيين من غرب أوروبا بقيادة من يسميه العرب (الكندهرى) أو الكونت هنرى) وهو (هنرى دى شمبانيا) قريب ملكى فرنسا وانجلتره فى آن واحد فما كاد صلاح الدين يفيق من الحلم المزعج بالخطر الذى كان يتهدده من قبل الالمان من الشمال حتى أتته طلائع الامداد العظيم الذى أرسلته أوروبا مجتمعة

وبدأ الحصار يشتد مرة أخرى بعد وصول هذه الامدادات

وجعل الفرنج يقذفون أسوار المدينة بالمجانيق بقوة لم يسبق عهد بها غير أن شجاعة المدينة لم تفل أمام هذه الهجمات العنيفة فقد كان (بهاء الدين قراقوش) و (حسام الدين أبو الهيجاء) بين العسكر يوقدون فيهم الشجاعة بأعمالهما وقدوتهما ، فكان المدافعون يخرجون بين حين وآخر فيوقعون بالمحاصرين وقعات ذات شأن بين أسر وقتل ونهب . وكان الزراقون والنفاطون دائبين على الدفاع بالنيران بهمة تعادل همة المحاصرين فى قذف المدينة من الخارج

وقد ظهرت شجاعة الجانبين جليا فى آخر ذلك الدور ، واذا كان لا بد من التمييز بين الجانبين فلا بد من تمييز المحصورين لما بذلوه فى شدتهم من التفانى فى الدفاع والصبر وكان من الافراد من يبذل جهدا خارقا للعادة فى أداء واجبه فكان بعضهم يعوم من المدينة مخترقا صفوف السفن الفرنجية الى أن ينفذ الى صلاح الدين فيحمل اليه الاخبار ويعود بعد ذلك يحمل ما يراد منه أن يحمله من رسائل أو من أموال يشدها حول جسمه ليمد بها المحاربين . واذا كان بين عامة الافراد ابطال لا يسميهم التاريخ فقد سمى التاريخ بطلا من عامة اهل عكا أبلى بلاء عظيما فى أثناء ذلك الدور حتى قضى نحبه وهو يؤدى واجبه وذلك هو عيسى العوام . واشتد الحصار بعد ذلك اشتدادا أعظم حتى صار التراسل غير ممكن الا بالحمام الزاجل بين المدينة وجيش صلاح الدين ولكن مع هذا أمكن السلطان أن ينفذ الى المدينة بعض السفن بين حين وآخر محملة بالمؤن

التى أصبحت المدينة فى أشد الحاجة اليها ـ ولكن كان دخولها المدينة بعد مشقة عظيمة اذ كانت قوة الفرنج فى البحر قد زادت بما انضم اليها من امداد أوروبا • ولعل الذى كان يمكن سفن المسلمين من دخول الميناء أنه كان هناك عند مدخلها برج عظيم اسمه برج الذباب مبنى على الصخر يحرس الميناء، فاذا عبرته المراكب أمنت غائلة العدو• فلما رأى الفرنج قيمته الحربية جعلوه همهم ودارت حوله معركة عظيمة بذل فيها الجانبان مجهودا كبيرا ولكن الفرنج عجزوا عن أخذه• وفى أثناء حصار برج الذباب وصلت بقية جيش الالمان بقيادة (المركيش) صاحب صور و (دوق سوابيا) ابن ملك الالمان فزاد القتال شدة ، واستمر هذا النضال بعد ذلك شهرين طويلين ظهرت فيهما نفس صلاح الدين وثباته رغم مرضه بحمى صفراوية• وقد تفشى المرض فى الجيش للوخم الذى أصاب الهواء بقرب عكا من كثرة القتلى ، ولكن عزيمة صلاح الدين كانت لا تفل وقد نصحه ناصح مرة أن يترك الميدان لما فيه من الخطر ثم يعود اليه بعد ذلك فتذكر السلطان الحازم خطأه السابق اذ انصرف عن العدو فى الدور الاول وقال لناصحه : « اذا كان لا بد من الموت فليكن فهو على وعلى أعدائى »

ثم تمثل وقال : « اقتلانى ومالكا واقتلا مالكا معى »

وجعل صلاح الدين يحتال على عدوه بتدبير الكمائن والهبوط عليه بين حين وآخر ولكن لم يجده ذلك وهجم الشتاء قبل أن يستطيع رفع الحصار عن المدينة • وهكذا اضطر أن

ينصرف بقلب ثقيل عن المدينة وجعل يصرف جنوده للراحة مدة الشتاء وهو يشعر بأن المدينة قد حان أجل تسليمها ٠ وقبل الرحيل انتهز فرصة هياج البحر وذهاب أكثر سفن الفرنج من تجاه ميناء عكا لاجئة الى الشاطىء فأدخل الى المدينة جماعات من الجنود والامراء بدل من فيها ممن طال عليهم الدفاع واشتد التعب وأدخل معهم ما تيسر من المؤن والذخائر ولكن لم يكن الآقبال على دخول البلد كثيرا ولهذا لم يدخل من الامراء والجنود عدد يعادل من خرج منها

ولسوء حظ المدينة لم تستطع السفن الآتية من مصر بالمؤن أن تدخل اليها وذلك لشدة هياج البحر فغرقت وتكسرت وكان لذلك أثر كبير فى نفوس من فى المدينة وسيكون أثر هذا أعظم بعد انقضاء الشتاء وعودة القتال واشتداد الحصار فان المدينة ستدخل على الدور الثالث من الحصار وليس بها من المدافعين ولا من المؤن ما يقيمها أمام هجمات عدوها العنيفة

الدور الثالث للحصار

مضى على حصار عكا صيفان وشتاءان وجاء الربيع من سنة ١١٩١م و (سنة ٥٨٧ هـ) ٠ فأخذت جيوش صلاح الدين تجتمع اليه من كل أنحاء الدولة كما بدأ الفرنج يجددون اغاراتهم على المدينة ويشددون حصارها

ولكن المدينة فى هذا الربيع لم تكن على مناعتها فى الدورين السابقين اذ كانت الاقوات فيها قليلة وكان المدافعون عنها أقل عددا وحماسة ممن كان فيها من قبل ٠ وقد زاد الامر شدة

على المدينة مجيء أسطول فرنسى وآخر انجليزى يحملان جنود فيليب أوجست (الفرنسيس) وريكارد (الانكتار)

وقد جاء ريكارد متأخرا قليلا عن جيش الفرنسيس بعد أن أخذ فى سبيله جزيرة قبرص وكان معه خمس وعشرون قطعة كبارا من السفن

وقد اجتهد الفرنج منذ أول هذا الدور فى طم الخندق الذى حول عكا ولكن أهل المدينة صبروا على المقاومة صبرا حميدا فكانت جماعاتهم يخرجون ما يلقى فى الخندق ويلقونه فى البحر تحت حراسة اخوانهم ويجدون فى ذلك مع المشقة العظيمة. وكان صلاح الدين فى الوقت عينه يجد مشقة كبرى فى الهجوم على الفرنج لتحصنهم فى خنادقهم ـ ولهذا أمكن الفرنج أن يضيقوا الحصار على المدينة وصار من أشق الامور ايصال شىء اليها من المؤونة

ولكن لا بد من ذكر أحد البعوث البحرية التى أرسلها صلاح الدين امدادا الى عكا وكان معها ستمائة وخمسون رجلا ومقدار عظيم من المؤن والأسلحة فان المهارة الحربية فى البحر التى امتاز بها الانجليز كانت أكبر مما عهده جنود المسلمين من الفرنج فأحاط الانجليز بالسفن الاسلامية حتى كان لا مناص من استيلائهم عليها ولكن من فيها آثروا الموت فأهووا على جوانب السفن بالمعاول حتى ثقبوها وغرقت وغرق كل ما بها ومن بها وكان قائد هذه البعثة يعقوب الحلبى تذكره فخرا واعجابا

وقد بدأ ملك الانجليز بارسال الرسل الى السلطان منذ أول مجيئه يفاوضه فى قواعد الصلح ولكن شروطه كانت أشد مما يقبله السلطان . فان الضعف اذا كان قد دب فى عكا فان دولة صلاح الدين كانت راسية الاساس متينة لا يستطيع مهاجم أن ينال منها شيئا ولهذا لم تنجح المفاوضات الاولى بل أصر السلطان على أن يظل على الحرب حتى يخضع له عدوه فى النهاية

ولم يخل هذا الدور الثالث من ظهور آيات جديدة تدل على ما كان عليه صلاح الدين من الخلق ولنذكر قصة الرضيع مثلا لهذا وذلك أنه حدث فى بعض اغارات المسلمين ان استولى مسلم على طفل رضيع ، فطار عقل الام وراء ابنها وخرجت الى معسكر المسلمين حتى وصل أمرها الى السلطان . فلما وقفت أمامه وعرف قصتها بكى رحمة لها وأمر برد ابنها اليها فالتمس حتى وجده بعد أن كان قد بيع فى السوق فدفع السلطان ثمنه الى المشترى وسلمه الى أمه وحملها على فرس واعادها الى معسكر الفرنج

على أن الفرنج وان زاد عددهم لم يكونوا على وفاق فقد كان فيهم رؤساء عدة كل منهم يحسد الآخر ويغار منه فكان هناك الملك القديم (جى دى لوسنيان) أو (كى) كما يسميه العرب وكان معهم المركيش صاحب صور وجاء بعد ذلك فيليب وريكارد

وكان أول من ثار من هؤلاء الرؤساء المركيش فانه هرب

من صفوف اخوانه عائدا الى صور وهناك تنحى عن الميدان حتى قتل كما سنذكر بعد

وكان صلاح الدين فى هذه المدة كثير الالم لما يراه من الضيق الذى أحاط بالمدينة حتى كان لا يأكل الا قليلا لهمه وغمه . وبدأت ترد اليه رسائل من المدينة يشكو من فيها الضيق والشدة وذلك بعد نحو شهرين من بدء الحرب فى هذا الدور اذ كان الفرنج قد نجحوا فى أخذ الخنادق التى حول المدينة وعملوا تلا مستطيلا من التراب يحتمون وراءه ، وجعلوا يقربون من أسوار المدينة حتى أصبحوا بجوارها ولم يقدر السلطان على مساعدة المدينة مساعدة كبرى مع محاولته ذلك بكل ما استطاع ، فلم يجد من فى المدينة بدا من مفاوضة الفرنج فى التسليم بعد نحو ثلاثة أشهر من تجدد الحرب وكانت شروط الصلح أن تسلم المدينة للفرنج بما فيها من الآلات والعدد والمراكب وأن تدفع نظير الاسرى المسلمين مائتى ألف دينار وتطلق ألفا وخمسمائة فارس من مجاهيل الاسرى الفرنج ومائة فارس معينين وأن يرد صليب الصلبوت ـ وأن يخرج جميع من فى المدينة سالمين بما معهم من الاقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم ولكن تلك الشروط لم تنفذ كلها كما سيأتى

وهكذا سلمت المدينة للفرنج فى ١٢ يوليه سنة ١١٩١ م (١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ) بين حزن الجنود الواقفة فى الخارج وألم السلطان الذى كان أشد الناس شعورا بتلك

الصدمة ، وتهليل الفرنج لما نالوا من نصربعدعامين قضوهما في حرب مهلكة عند أسوار تلك المدينة

كان ميعاد بذل المال لفداء الاسرى شهرين ـ فبعد أن سلمت المدينة كان هناك جانبان كل منهمايشك فى نية الآخر فالفرنج وقد أخذهم زهو النصر لا يريدون أن يسلموا شيئامن أسراهم حتى يتأكدوا من المال ، والمسلمون وقدوخزهم الانهزام يريدون ألا يزيد عدوهم قوة بالمال المشروط الا اذا تأكـدوا من أنهـم يطلقون الاسرى المسلمين . وهكذا بدا الصليبيون بالاحتياط فحبسوا المسلمين الذين فى عكا ممن يجب فداؤهم

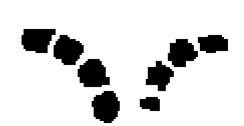
وأما المسلمون فبدءوا فى تحصيل المال وعرضوا أخيرا أن يسلموا منه النصف بشرط أن يضمن الداوية (فرسان المعبد أو التمبل) اطلاق الاسرى عند تمام دفع المال لأنهم كانوا أهل دين ومحافظة على العهد يعرفهم المسلمون بذلك . فأبى الداوية أن يضمنوا ، وقال الفـرنج انهـم يصرون على دفع المال كله ولهم بعد وصوله أن يطلقوا من شاءوا ويحفظوا من شاءوا . فشك صلاح الدين فى نيتهم وانهـم يريدون وصـول المـال ليتقووا به ثم يطلقون الفقراء والصـغار ويحتفظون بالامـراء والاغنياء ليصيبوا من وراء ذلك غنما جديدا يتقوون به ولهذا أبى أن يسلم المال الذى جمعه

ثم استمر القتال بين الفريقين بعد أخذ الفرنج عكا وماكان اشد دهشـة المسلمين عندما رأوا بعد القتال جثث أسرى عكا

وقد قتلهم الفرنج وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف رجل وذلك فى اغسطس سنة ١١٩١ م ولم يبق من الأسرى الا الأمراء والاغنياء . وعلى ذلك لم يرسل السلطان المال ولا الاسرى الفرنج ولا الصليب

وانا لا نقدر أن نشدد النكير فى اللوم على الفرنج على ما أتوه ، فلا نستطيع أن ننسب ذلك الى التعصب والكره والحقد كما يذهب جماعة من المؤرخين بل نرى ذلك نتيجة لسوء فى التفاهم بين الجانبين فى وقت كانت العداوة ثائرة والنفوس متألمة بعد قتال عنيف استمر سنتين عند أسوار المدينة وكان ذلك النصر بعد الهزائم المتكررة دافعا بطبيعة الامر الى ارتكاب ذلك الشطط

على أننا لانتمالك الاعجاب بصلاح الدين واعتداله وحكمه لنفسه اذ ارجع اسرى الفرنج الى دمشق سالمين مع شدة غضبه وحنقه على من نقضوا العهد ولم يأخذهم بجريرة اخوانهم



الفصل السابع

صلاح الدين
وريكارد ملك الانجليز

الحرب بعد سقوط عكا

قد كان لاخذ عكا أثر أدبى كبير فوق ما كان له من أثرمادى فى تقوية الفرنج وتخذيل المسلمين فان الصليبيين ساروا بعد أخذها منتصرين وخشى المسلمون بأسهم فكانوا يفرون فىأكثر مواقف اللقاء ولولا ثبات صلاح الدين نفسه وأخيه العـــادل وبعض كبار الامراء لكان الخطب أعظم — وكان قائد الفرنج بعد أخذ عكا فى أكثر الوقت ريكارد وذلك لان فيليب ملك فرنسا عاد الى بلاده عقيب أخذ تلك المدينة ولعل من أســـباب عودته ما كان بينه وبين ريكارد من الخلاف والمنافسة

سار ريكارد الى الجنوب على رأس الجيوش الصليبية قاصدا أخذ بلادالساحل ، ثم اذا اطمأن له ذلكنفذ الى الداخل ليستولى على بيت المقدس .

وسار صـــلاح الدين وأمراؤه بازائهم ولكن المسلمين كانوا يسبقون الى الجنوب مسرعين على حين كان الفرنج يتريثون فى سيرهم اما لانتظار المدد من وراء البحرواما للخوف من الكمائن. ولم يحدث قتال يستحق الذكر الا عند ارسوف فى أول سبتمبر سنة ١١٩١ م شعبان سنة ٥٨٧ هـ. وهناك انهزم المســلمون

هزيمة كبرى ولولا ثبات صلاح الدين فى القلب مع جماعة قليلة ، ولولا أثره الشخصى فى تحميس الجنود او اشعارهم الخجل من فرارهم لكانت موقعة أرسوف نكبة من أكبر نكبات هذه الحرب • ولم يستفد الفرنج من انتصارهم عند أرسوف اذ كانوا دائما يحسبون فرار المسلمين خديعة ويحسبونهم قد أكمنوا لهم الكمائن - وزاد فيهم هذا الاعتقاد عندما رأوا فى القلب جماعة ثابتة ، وهى الجماعة الملتفة حول السلطان

ولما رأى صلاح الدين ضعف الحالة المعنوية فى جيشه جمع أمراءه عقب الموقعة ليروا رأيا فى الخطة التى يجب اتباعها فقرروا ان يتركوا الساحل للفرنج ولا يحاولوا المدافعة عن مدينة من مدنه • ولكنهم قرروا تخريب المدن الجنوبية القريبة من حدود مصر حتى لا يتحصن الفرنج بها اذا أخذوها فيكونوا خطرا على المواصلة بين مصر وبين ميدان الشام وتقرر البدء بتخريب عسقلان . وقد تألم صلاح الدين أكبر ألم لذلك اذ قال لأحد ثقاته : « والله لأن افقد أولادى بأسرهم أحب الى من ان اهدم منها حجرا واحدا ولكن اذا قضى الله ذلك لحفظ مصلحة المسلمين كان »

وقد بدأ هدم المدينة بعد قليل وسط آلام الناس جميعا وكان صلاح الدين يسرع بتدميرها قبل أن يعلم الفرنج بأمرها خوف أن يسرعوا اليها فيأخذوها قبل اتمام ذلك الغرض ويعيدوا حصونها فتكون لهم بها قوة ومنعة

وكانت تلك الخطة فى الحقيقة خير ما يمكن فى تلك الظروف

اذا نظرنا الى ما كانت عليه النفوس فى جيش صلاح الدين بعد صدمتى عكا وأرسوف . وقد اتبع صلاح الدين خطة التدمير والهدم نفسها فى اللد وقلعة الرملة وذهب فى أثناء ذلك الى القدس يزيد من تحصينها وتجديد أسوارها فكان غرضه ظاهرا من أعماله وهو أن يدع الساحل للفرنج ويقوى الداخل عالما أن أعداءه أقوياء قرب البحر وأن فرصته انما تكون اذا هم بعدوا عنه متوغلين فى الداخل

واستولى الفرنج فعلا بعد قليل على كل مدن الساحل وحاولوا ان يعيدوا حصون عسقلان وسواها مما خربه السلطان وبداوا يفكرون فى غزو الداخل ولكن فى هذه الاثناء دب خلاف جديد بين المركيش (كنراد دى منفرات) وبين الانكتار (ريكارد) وجعلت رسل كل منهما تفد الى صلاح الدين أو الى أخيه الوديع الملك العادل تطلب الصلح ، وقد أدرك (ريكارد) أن الاستمرار فى الحرب غير ممكن وأنه ان أحرز نصرا مرة أومرتين فلن يقدر على طول النضال ولهذا أراد أن ينتهز فرصة ضعف الروح فى الجيش الاسلامى ليفوز بشروط رابحة - فكانت رسل المركيش تأتى عارضة شروطا للصلح ورسل الانكتار تأتى عارضة شروطا أخرى كما يفعل المتنافسان وكان الملك العادل هو السفير فى المفاوضات فى أكثر الاحيان

وكانت شروط المركيش ان تكون له صيدا وبيروت على ان يكون حليفا للمسلمين ضد الفرنج

ولكن صلاح الدين كان غير واثق من صدق نيته فاشترط

عليه أن يبدأ بحرب الفرنج ومهاجمة عكا قبل أن يصالحه

وأما شروط الانجليز فقد كانت الاستيلاء على القدس وارجاع الصليب وأخذ البلاد التى بين نهر الاردن والساحل وأن يكون تحالف بين الدولة الاسلامية والصليبيين ويتزوج الملك العادل بأخت الانكتار ويكونا معا حاكمين على الدولة الجديدة بمقتضى المعاهدة ، ولكن تلك الشروط لم ترق أحدا من الجانبين

والظاهر أن الجنود الاسلامية بدأت تسترجع قواها بعد شهرين من سقوط عكا وبدأت تقف ثابتة وتحرز بعض النصر فى مواقف الحرب وبدأ الانكتار يرى الحقيقة التى كان انتصار عكا أخفاها عن عينه وهى أنه ليس من الطبيعى أن ينتصر فى بلاد بينها وبين مقر دولته سفر طويل فى البحر ، ويكون النصر على قوم فى وسط بلادهم تتجدد قوتهم بعد حين اذا ضعفت وتأتى الى ميدان النضال فيها كتائب تحل محل من قتل ومن أسر . ولهذا بدات المفاوضة من جديد وكانت الشروط هذه المرة ألين وأهون • ومما يسترعى النظر أن المفاوضة بين الجانبين كانت تتخللها فكاهات ومداعبات وهدايا ومجاملة فيحمل الملك العادل من طعام المسلمين وتحفهم الى الانكتار ويحمل الانكتار من طعام الانجليز وتحفهم • حتى اذا ما اجتمع الاثنان تجاذبا اطراف الحديث من سمر ودعابة وفكاهة ينسى الانسان معها أن هذه مفاوضة فى حرب مرة ثار لهيبها طول قرن لم يخب ولم ينطفىء — حتى لقد نشأت شبه محبة بين العادل وريكارد واستمرت الى أن انتهى الامر بالصلح أخيرا

وكان صلاح الدين فى أثناء كل هذا لا يرغب رغبة حقيقية فى الصلح على تلك الشروط فكان لا يرضى بدون خروج الفرنج من جميع البلاد ولكنه كان يرضى بدخول أخيه فى المفاوضة لكى يضرب جانب المركيش بجانب الانكتار ويحدث له من وراء ذلك الربح والفوز ولعله كان أميل الى المعاهدة مع المركيش لانه كان يرى أن شروطه أهون شرا وأنه اذا بقى فى بلاد الساحل فلن يكون شديد الخطر بل يسهل طرده منها بعد حين. ولكن الامراء رأوا أن الصلح مع الملك (ريكارد) أتم وأضمن للسلم لقوته وشجاعته .

وقد دخل شتاء سنة ١١٩١ بغير أن يتم صلح مع أحد الجانبين • فرجع صلاح الدين الى الداخل وعاد ريكارد الى عكا على أن المفاوضات لم تنقطع بين المسلمين وطائفتى المركيش من جهة وريكارد من جهة أخرى • وقد أراد صلاح الدين أخيرا أن يبرم الامر على ما يراه هو وأن يصالح المركيش اذ رأى أن الصلح معه يضعف الفرنج فاذا تم له النصر أخيرا على ريكارد سهل عليه أمر المركيش • ولكن ما لبث أن سمع بنبأ قتل المركيش فى صور قتله اثنان من أصحابه على قول جماعة ويقول آخرون : بل قتله اثنان من الفدائيين من طائفة الباطنية الاسماعيلية • ويعتقد الجميع أن قتله كان بدس من أعدائه ولكن هناك خلافا فتقول طائفة أنه قتل بايعاز صلاح الدين ويقول آخرون : بل قتل بايعاز ريكارد . ولكن مهما يكن من الامر فان صلاح الدين لم يدس على المركيش من قتله وذلك لعدة

أسباب يكفى أحدها أن يكون برهانا قاطعا • فان صلاح الدين لم يكن رجل الدسيسة والغدر ـ حقا كان يجاهد ويحـــارب ولكنه كان يحارب فى الميدان المفتوح واثقا من النصر اذ كان يرى الحق معه ولم تكن فى حياته شبهة من غدر أو خيـــانة . وكذلك لم يكن صلاح الدين على وفاق مع الاسماعيلية بل أنه كان موتورا منهم لسابق اعتدائهم عليه • ولئن كان لصــلاح الدين غرض فى الغدر فكان الاولى به أن يغدر بعـــدوه الاكبر ريكارد وكانت فرص الغدر به كثيرة لو شاء وما كان أقــرب اليه اذا كان رجل غدر أن يدس على (ريكارد) من يقتله أثناء اجتماعه بأخيه للمفاوضة أو يدس له السم فى الطعام الذى كان يأكله من يد المسلمين آمنا . وهل يتهم صلاح الدين ـــ وهو الرجل الذى كان يرسل لعدوه الدواء وهو مريض ـ بانه يدس على عدو آخر من يقتله ؟ !

وقد رأينا أن صلاح الدين كان أميــل الى مصالحة المركيش وانه كان يرى المصلحة فى الاتفاق معه ليكون مساعدا له على الصليبيين فكان من مصلحته أن يبقى حيا وليس أن يدس عليه من يقتله فى الوقت الذى كان قد استقر رأيه فيه على مصالحته وتفضيل التعاهد معه على مصالحة ملك الانجليز

فيلوح لنا أن الحقيقة هى أن (ريكارد) صاحب الدسيسة كما أقر القاتلان نفساهما • وأن قتله كان على يد اثنين اما من المسيحيين المتحمسين واما انه استأجر اثنين من الاسماعيلية وقد تنكروا فى زى المسيحيين لهذا الغرض

ومن السهل أن نتصور الباعث على قتله فان المركيش كان في نظر الصليبيين خائنا خارجا على الدين مواليا لاعداء المسيح ثائرا على أوليائه



الميدان الاخير

دخل ربيع سنة ١١٩٢ م ـ ٥٨٨ هـ فاجتمع الجنود المسلمون الى صلاح الدين ولم يجتمع الى ريكارد الا فلول جيشه القديم وقد خبت ثورة النصر الذى أحرزوه فى العام المنصرم الا أنه كان لا يزال على عزمه فى خطته الاولى وهى أن يدخل الى بيت المقدس بعد الاستيلاء على الساحل الجنوبى فلما تم له أخذ الساحل فى العام الماضى جعل غرضه من حرب هذا العام الاستيلاء على بيت المقدس فما زال يسير من منزلة الى منزلة وجنود صلاح الدين بازائه وكان السلطان قد حصن بيت المقدس وقسم أسوارها على أمرائه مصمما أنه لن يترك عدوه يستولى على تلك العاصمة كما استولى على عكا ولهذا أخذ أمر الدفاع عنها فى يده • ووصل الفرنج أخيرا عند موضع اسمه بيت نوبه على مرحلة من بيت المقدس وهناك بدأوا يترددون ثم وقفوا • ولم يحدث فى وقوفهم هناك أكثر من نهب قافلة عظيمة كانت آتية من مصر بالذخيرة ويقال ان عدد جمالها كان سبعة آلاف جمل فاستولى الفرنج على ثلث منها وتشتت منها ثلث فى البرية ووصل الثلث الاخير الى الكرك محتميا بها

ولكن هذه الخسارة لم توقع الرعب فى قلب صلاح الدين

بل زادته تصميما على الدفاع واعدادا لعدته فبالغ فى تحصين بيت المقدس وأفسد الماء الذى فى ظاهر المدينة وكان فى هـذه الاثناء شديد الوجد كثير الدعاء لله بالنجدة يتخلل دعاءه البكاء وما كان أشد دهشة المسلمين بعد هذا كله اذ سمعوا بعودة الفرنج الى الساحل • ولعل سبب رجوعهم ما سـمعوه من استعداد صلاح الدين لهم وكان عدد جنودهم غير كاف لاتمام حصار المدينة من كل جانب لاسيما والمدينـة يحيط بها واد منخفض من أكثر جهاتها ، وهـذا يدعو الى تشتيت القـوة المحاصرة .

وكان الفرنج يخشون التشتت لعلمهم بأن المسـلمين اذا هبطوا على جماعة وحدها قضوا عليها ثم عادوا الى الجهة الاخرى وهكذا .

وقد فرح المسلمون أشد فرح بعودة الفرنج عنهم وتشددت عزائمهم وبدأت أحاديث الصلح بعد ذلك تتردد وكانت شروط ملك الانجليز هذه المرة صالحة لان تكون أساس المفاوضة• وهى أن يترك ريكارد البلاد الساحلية لابن أخته الكندهرى (الكونت هنرى دى شمبانيا) على أن يكون تحت حكم صلاح الدين وأن يأخذ الفرنج كنيسة فى بيت المقدس .

فرضى صلاح الدين باعطاء كنيسـة القيامة بالقدس وابقـاء مدن السـاحل فى يد الفرنج الا عسقلان وما وراءها فتكون خرابا ليست لاحد من الجانبين وأن تكون كل القلاع الجبلية للمسلمين وجعلت المفاوضة تسير بين الطرفين سـيرا مترددا طول مدة

الصيف ويختلف الطرفان على تفاصيل قليلة الخطر

وتخللها انقطاع وحرب وكان ميدان تلك الحرب عند يافا . فأخذها صلاح الدين بعد حصار قصير • وكان ريكارد فى هذه الاثناء ذاهبا الى الشمال نحو بيروت فلما سمع بحصارها عاد مسرعا اليها فى البحر وهناك ظهرت شجاعته العظيمة التى كان لها أكبر أثر فى نفوس المسلمين . فانه لم يكن معه الا عدد قليل ولكنه مع ذلك استطاع تنجية القلعة وهرب من اسمه الجيش الكبير الذى كان فى يافا • وقد تحدى ملك الانجليز فى اليوم التالى كل جيش المسلمين آخذا رمحه حاملا من طرف الميمنة الى طرف الميسرة فلم يتعرض أحد له حتى غضب صلاح الدين وأعرض عن القتال وانصرف عن يافا الى الرملة مع أن ريكارد لم يكن فى أكثر من ثلثمائة مقاتل

تقدير بطل لبطل

وقد مرض ريكارد بعد ذلك مرضا شديدا واشتهى الكمثرى والخوخ والثلج فكان صلاح الدين ينفذ اليه بما يطلب من ذلك • ولعل ذلك من أكبر ما يقوم دليلا على تقدير البطل للبطل ولو كان عدوه

وعزم الجنود الفرنسيون عند ذلك على العودة الى بلادهم ليلحقوا بملكهم الذى سبق رحيله فاشتدت رغبة ريكارد فى الصلح وكانت عقدة الاتفاق عسقلان فان ملك الانجليز كان مصرا على أخذها محافظة على كرامته فى الصلح وكان صلاح الدين يأباها عليه اباء شديدا خوفا على مصر منها ومحافظة على

كرامته فى الصلح أيضا اذ كان أخذها عنوانا للنصر فى تلك الحرب التى لا يستطيع جانب فيها أن يدعى النصر غير مدافع

واخـــيرا تم صلح الرملة فى ٣ سبتمبر ســـنة ١١٩٢ (٢٢ شعبان سنة ٥٨٨) وحلف عليه من الفرنج جماعة الامراء والملك الذى سيتخلف بالشام وهو (الكندهرى) ولم يحلف الملك (ريكارد) قائلا أن الملوك لا يحلفون ولكن كلمتهم تكفى. وحلف من المسلمين الملك العـادل أخو صـــلاح الدين والملك الافضل والملك الظاهر أبناه وجماعة من أمرائه الكبار وكانت شروط الصلح ان يحتفظ الفرنج بالسـاحل من عكا الى يافا وأن يسمح للحجاج أن يزوروا بيت المقدس وان تخرب عسقلان ويكون الساحل من أولها الى الجنوب لصلاح الدين

ودخل فى ذلك الصلح أميرا طرابلس وأنطاكية على أن يحلفا للمسلمين فان لم يفعلا لم يدخلا فى الصلح

وهكذا تم الصلح ووفدت وفود الحجاج المتحمسين الى القدس فاكرمهم صـــــلاح الدين اكــراما عظيما وعاد ريكارد الى بلاده وانصرفت الجنود الاسلامية عائدة الى أوطانها المختلفة بعد تلك الحرب الضروس التى لم يخب لهيبها مدة قرن ، فمات فيها من مات من الفرنج فى سبيل غرض دفعتهم الى قصده حماسة غير موفقة وساقهم الى تلك الحماسة جماعة كان أكثرهم «يسرحسوا فى ارتغاء » (١) ، ومات من مات من المسلمين فى دفاعهم المجيد

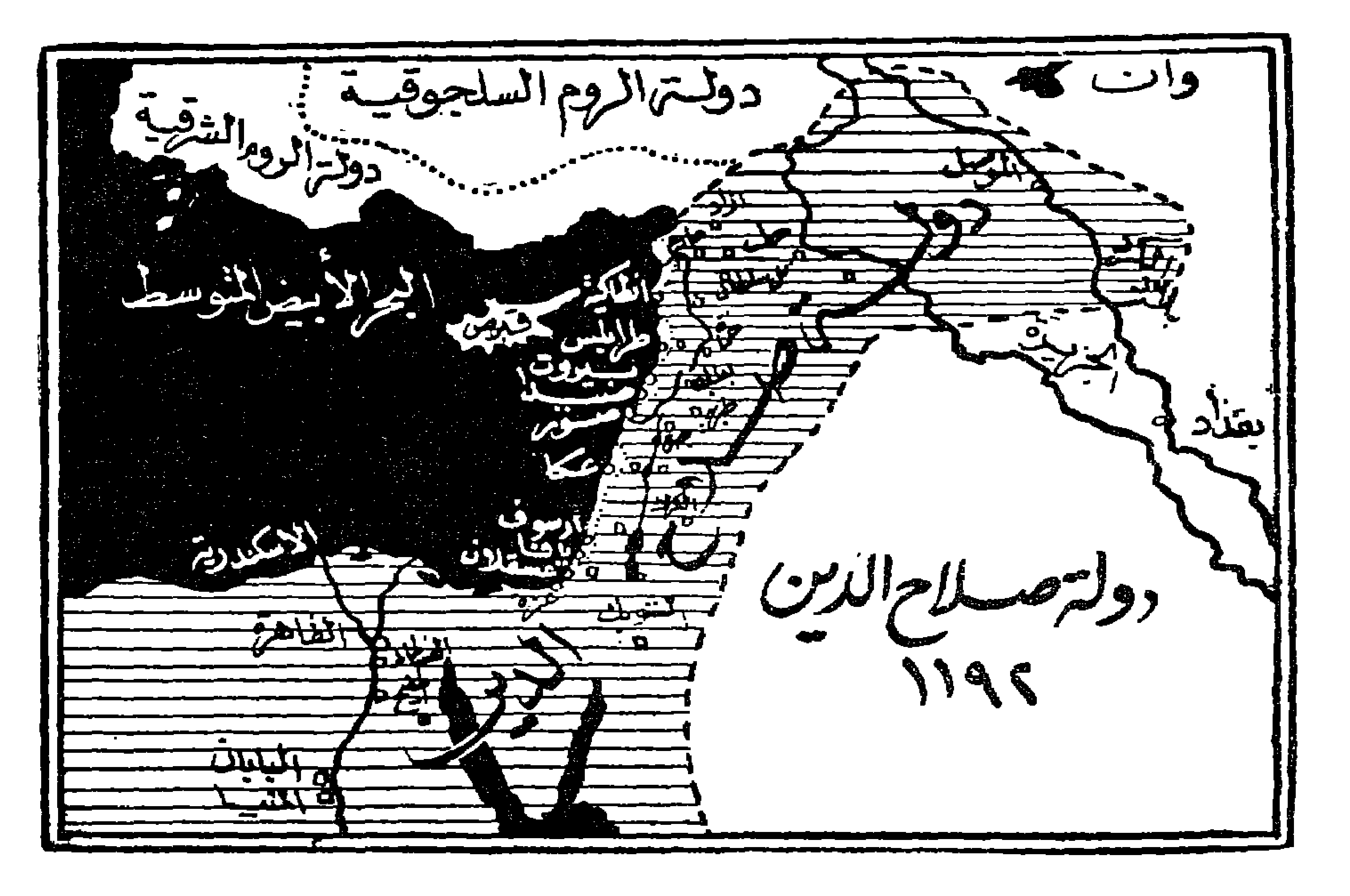
---

(١) مثل يضرب لمن يظهر امرا ويخفى غيره

عن أوطانهم يقودهم شيوخ من كرامهم رأوا ذلك الجهـــاد خير ما يقضى فيه عمر الاحياء • وما الحيـاة ؟ أليست تلك الانفاس التى تتردد فى تلك الفترة المحتومة ما بين واجب الميلادوواجب الموت ؟ الا انها لفترة مملة منسئمة اذا لم يكن بها مايهز النفوس ـ ولئن كان هذا كذلك فلقد اختار مسلمو ذلك العهـــد ذلك الجهاد سلوة جديرة بكرام الرجال

وأما عمل صلاح الدين فى ذلك فانه قد جمع الدولة الاسلامية بين يديه وكانت عندما دخل الميدان لاتعدو عاصمتين من عواصم الشام والجزيرة وما بينهما من الارض وكان ما عدا ذلك فى يد الفرنج أو الفواطم

فلما مات كانت دولة واحدة من الدجلة الى النوبة الى برقة وما زال بالفرنج حتى حصرهم على الساحل فى الرقعة الضيقة بين عكا ويافا • واذا قلنا أن ذلك عمل صلاح الدين فما ذلك الا لانه لولاه لما تم ولظلت دولة الفرنج قوية بل لزادت قوة



خريطة دولة صلاح الدين

الفصل الثامن

نهاية البطل

وفاة صلاح الدين

أقام صلاح الدين بالقدس حينا بعد الصلح لكى يصلح من امرها على حسب سنته وأقام بها المدارس والمستشفيات ثم خلف بها صديقه القديم عز الدين جورديك وسار يتفقدأحوال البلاد الشمالية ويقابل الامراء لا يفرق بين صاحب انطاكية المسيحى وأصحاب نابلس وطبرية وصفد المسلمين ٠ ثم دخل دمشق وكان دخوله اليها دخول المنصور الموفق ٠ واستقبلته تلك المدينة المحبوبة استقبالا عظيما جمعت فيه تقدير عظمته وحب كرمه وخلقه العظيم وجاءتاليه وفود الناس منأهلدنيا وأهل دين واجتمع له الشعراء والادباء يقصدونه بالمدح فكان وجوده بالمدينة سلسلة من الاعياد والافراح ٠ وافاه هناكأخوه وأولاده وكان يقصد أن يعود الى مصر من هناك ولعلهكان يقصد ان يجعلهامركزدولتهالجديدة ، ويأخذفى تنظيمهاواعلاءشأنهاولكن جماعةيقولونانه انماكان يقصد الراحةقليلا ثم يعودالىالقتال فى آسيا الصغرى وبلاد فارس .. على انه قد بقى فى دمشق اطول مما كان عازما عليه فى اول الامر . فقد كانت دمشق مهد صباه الاول وكانت أحب البلاد اليه وقد استهواه فيها الصيد فخرج يقضى منه وطره وينعم بلذة الرجولة فيه ٠ ويتفرج فى ارض

الظباء فى سهوبها مدة الشتاء وكان يجلس فى أكثر أوقات الفراغ فى وسط أولاده الصغار وأصدقائه المقربين وقد رفعت عنهم الكلفة وسادت المباسطة . وفى أثناء تلك الراحة حدث له كسل فكان لا يكثر من الخروج الى العمل الرسمى بل يؤثر البقاء فى خلوته

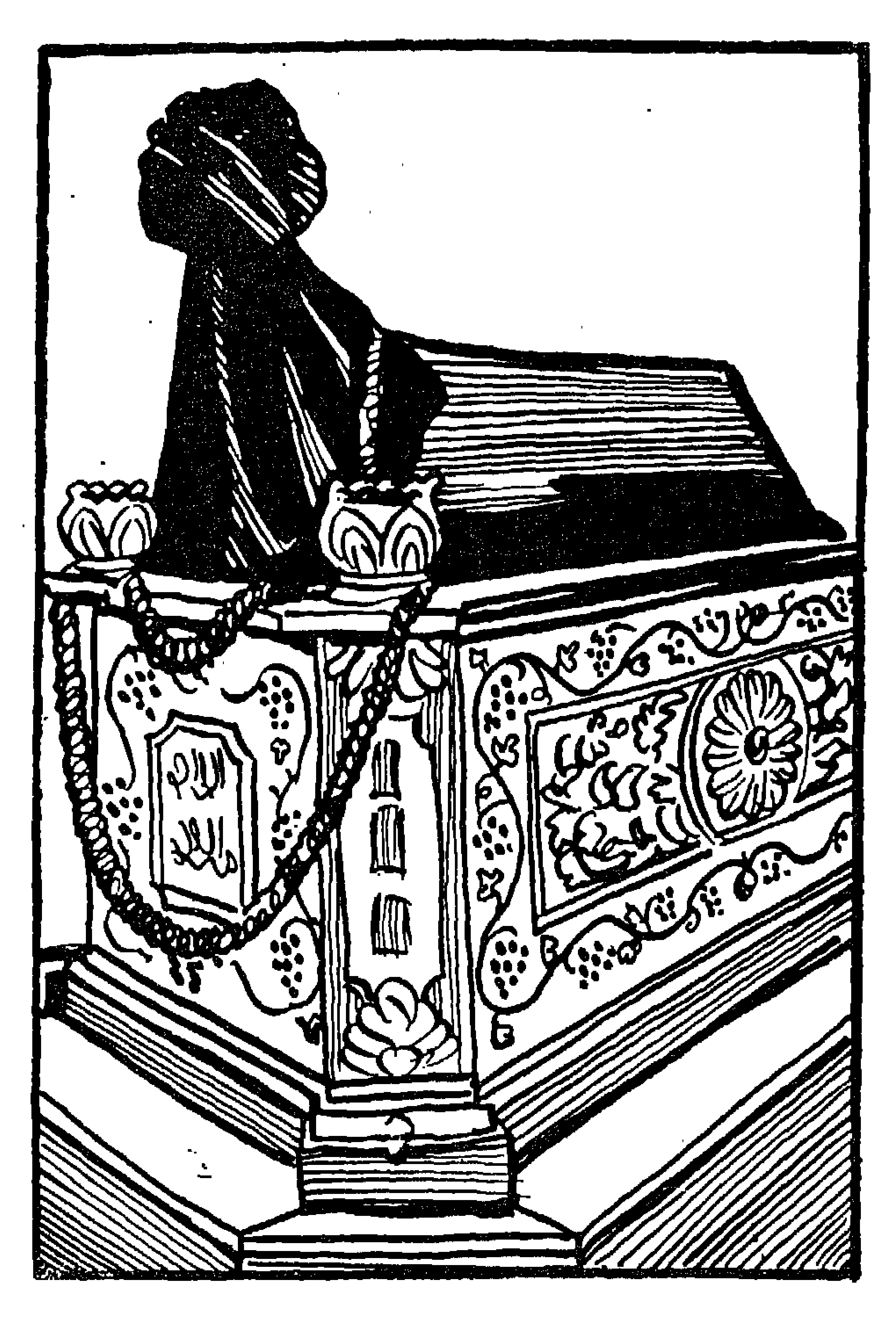
ولكنه لما رجع الحجاج خرج الى لقائهم وعند ذلك اجتمع الناس لرؤيته وكان فى لباس بسيط ليس عليه درع ولا وقاء وكان يرغب فى الحج ولا يجد فرصة لذلك وسط حروبه ومشاغله فكان لذلك تأثره عظيما عندما رأى المقبلين منه . ثم عاد بعد ذلك الى دمشق سائرا بين البساتين ليتحاشى الجموع الكثيرة المصطفة لرؤيته ولعل ذلك كان برأى الذين حوله اذ خشوا عليه من شر يحدث له فى وسط الجموع وليس عليه ما يقيه

ومرض بعد عودته الى دمشق بحمى صفراوية وانتابه أرق شديد فى الليل ولزم الفراش نحو أحد عشر يوما ومات فى الثانى عشر من مرضه وكان ذلك فى السابع والعشرين من صفر لعام تسع وثمانين وخمسمائة ويوافق ذلك ٤ مارس سنة ١١٩٣ ميلادية

وكان حزن الناس لموته لا يوصف فقد كان العامة يرون فيه السلطان العادل ، والجند يعرفونه القائد المنصور ، والقادة يعرفون فيه الرجل العظيم ، والعلماء يعرفون فيه التقوى والوداعة والايمان ، والادباء يذكرون ما نالهم من بره وتقديره

لمواهبهم . فكان يوم موته مأتما عاما لا مراءاة فيه ولا مجاملة بل كانت موجة الحزن تجتاح البلاد قوية ثائرة . قال أحد كبار رجاله وهو القاضي بهاء الدين بن شداد : «وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم فظننت هذا على ضرب من التجوز والترخص الا فى ذلك اليوم فانى علمت من نفسي ومن غيرى أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس» وقد مات صلاح الدين عن نحو سبع وخمسين سنة بعد أن ملك مصر نحو أربع وعشرين سنة وملك الشام نحو تسع عشرة سنة وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا وبنتا واحدة تزوجت فيما بعد بابن عمها الملك الكامل صاحب مصر وكان أكبر أولاده الذكور الملك الافضل نور الدين على والذى يليه العزيز عثمان والثالث الظاهر .

□□□



قبر صلاح الدين بدمشق

شخصية صلاح الدين

ما هى العظمة ؟ وما هو الرجل العظيم ؟ هـــذآن سؤالان يصعب أن يجيب الانســـان عليهما ولكن لابد من أن يتلمس الانسان ذلكالسر اذا أراد أن يدركشيئا عن حقيقة صلاحالدين

لقد كان فى العالم عظماء كثـــيرون من رجال السيف ومن رجال الفكر وقد ترك هؤلاء آثارا فى وقتهم وظلت آثارهم الى ما بعد موتهم .

ولكن المرء يدرك أنهم كانوا كبارا فى الرجال فاذا ما حاول أن يعرف سر عظمتهم خانه البحث أو ضلله المنطق • حتى لقد قال الكثيرون أن العظمة سر خفى فى المرء يرى أثره ولا يعرف كنهه .

ويكتفى هؤلاء بأن يفسروها بألفاظ غامضة آذ لا يقـدرون على تبسيطها • ولكنا نخاطر ونحاول بالاستقراء أن نقول فى هذا الشأن كلمة نصوغها بأبسط لغة عالمين بوعورة ما نتجشم

الجســم فى نفســه ، وهو تلك المجموعة من اللحم والعظم وسائر المكونات ، ليس الا آلة تطبع وأداة تنفذ ما يريده نظام أعلى وهو الروح وما يلحق به من مجموعة عصبية ولعلنا اذا أردنا معرفة

سر عظمة الفرد لا نقدر أن نجده فى الغلاف الخارجى بل لابد أن يكون فى تلك المجموعة العصبية المسيطرة

(ا) كان كل عظماء الرجال ذوى أعصاب متينة ـ تحس فتؤدى احساسها على أتم وجه وأدقه ـ ثم تحرك الجسم ما شاءت من حركات لا يتطرق اليها الخلل ولا يخرج عن سلطانها عضو من الاعضاء

يتلقى العظماء من الصدمات أعظمها ويحسون بعظم الصدمة بل أن احساسهم بها يكون فى الغالب أكثر من احساس عامة الناس ولكنهم لا يذهلون للصدمة ولو اشتدت ـ ومثل هذا ماتسمعه من نابليون اذ قال عن نفسه : « كأن الاقدار كانت عالمة بما خبأته لى من صدمات فجعلت لى أعصابا من حديد »

وقد كان لصلاح الدين قسط كبير من هذه الصفة فكان لا يذهل عند صدمة بل يحس بها ويقف ويحكم ويريد وينفذ فى ثبات ودقة . ففى حصار عكا كان يرى العدو يزيد عدده يوما بعد يوم وهو يتخذ لكل طارىء عدته أو يحاول ذلك ولم يجزع ولم تخر عزيمته . وفى موقعة أرسوف وقف وحده فى وسط جمع قليل وقد انهزم جيشه وبقى على ثباته حتى بعث شيئا مما فى نفسه من قوة الجنان الى رجاله فثبتوا ومنع بذلك كارثة كادت تكون قاضية . وكم حدث أن بلغه نعى أبنائه أو أهله من أعز الناس عليه فيملك نفسه والحزن يحرق قلبه فاذا كان فى وليمة لا يفسدها بل يستمر على احيائها الى أن تنتهى ثم يترك بعد ذلك العنان لنفسه الحساسة فيفيض جواها وحزنها بعد أن

كبحها ما شاء • ولو شئنا أن نضاعف الامثلة الدالة على ذلك لوجدنا فى كل يوم من حياته المليئة مثلا بل أمثالا

(ب) هذا وقد نبيح لانفسنا أن نستعير لغة ما وراء الطبيعة فنقول أن القوة العصبية نوع من القوة ولها كما يقولون أشعة ولعل تلك الاشعة تحدث فى الخارج أثرا ، ولعل هذا هو سر ما يشعر به الناس من هيبـــة ممزوجة باحترام وحب اذا هم اقتربوا من العظيم وما ذلك الشعور كما يقول أصحاب ما وراء الطبيعة الا نتيجة تأثير نفس العظيم فى نفوس من حوله وذلك شبيه بأثر المنوم فى التنويم المغنـــــاطيسى • وقد كان عظماء الرجال جميعا متصفين بتلك الصفة فلا نســـمع عن عظيم الا ونعرف أن المتقرب اليه كان يشعر بشىء من الشـــعور القوى نحـــوه .

وقد قال من اقترب من صـــلاح الدين مثل هذا ومن ذلك ما حكاه عبد اللطيف البغدادى عنه اذ قال « ان المتقرب منـه لا يستطيع الا أن يحس بحب له ممزوج بهيبة » (١)

---

(١) كان امراؤه الكبار ومماليكه الصغار اذا رأوا عينه واقعة عليهم وعرفوا انه ينظر الى اعمالهم استماتوا فى القيام بالواجب وبالغوا فى اظهار ما فى نفوسهم من شجاعة أو كرم • وما كان جزاؤهم الذى يتوقعونه من وراء كل ذلك الا ان ينالوا من صلاح الدين ابتسامة الرضا اولا وان تلحقهم هـــذه الاعمال بمرتبته فى البطولة ــ وليس من المبالغة ان نقول ان لصلاح الدين فضلا كبيرا فى تلك الشهامة التى ظهرت فى المسلمين فى ذلك العصر فان للقائد اثرا عظيما فى نفوس رجاله فالناس هم الناس على وجه التقريب فى كل وقت فاذا تولى امرهم عظيم تساموا جميعا الى مستوى عظمته فأتوا بالعجيب =

(ج) هذا عن تلك القوة المبهمة التى يمتاز بها الرجل العظيم ولكننا نقدر بعد ذلك أن نتكلم كلاما أقل ابهاما ــ فان من أكبر مميزات العظيم نظرته فى الحياة الى نفسه والى الناس

ان الطفل ينظر الى العالم نظرة سطحية فيرى كل ما فيها معقداً منفصلا عن غيره غير مفهوم فاذا ما كبر أخذ يخترق السطح فيعرف طبائع الاشياء فيقل تعقدها فى نظره حتى اذا ما عرف العالم وخبره أمكنه أن يسند كل شىء الى أصوله وأن يرى الامور بسيطة الى حد أكبر مما كان يراها من قبل . وهكذا الناس فمنهم الابله الذى يأخذ العالم كما هو ويظن كل شىء وحدة قائمة بذاتها فيخيل اليه أن العالم مركب معقد على غير نظام ويليه من هو أكثر منه نباهة حتى الذكى الفهم فانه يرى العالم أبسط بكثير مما يراه الاقل فهما . فاذا ما بلغ الرجل

= واذا تولى أمرهم حقير النفس ضاع أمرهم وفشلوا وبرزت الى الامام ادنى صفات الانسان وأحقرها

فلنذكر ذلك الشاب الصانع الدمشقى الذى توصل الى اختراع وسيلة لاحراق آلات العدو بعد ان أعيت المسلمين الحيل فى الدفاع عن انفسهم امامها حتى اذا ما حضر الى صلاح الدين واظهر له هذا رضاه وعرض عليه الجزاء أبى الشاب اباء صادقا وقال انه ما فعل ذلك الا اداء لواجبه وتقربا الى الله تعالى ... ولنذكر مملوكه الذى رآه ناظرا اليه والجموع المسيحية الهائلة دونه فاندفع الى الموت وصدع صفوف الاعداء صدعا كبيرا بنفسه وحده ــ وعلت بذلك المثل الصالح نفوس المحاربين فاندفعوا الى تقليده والانتقام له

ولنذكر امراءه الكبار وليس فى الدولة ما يضمن خضوعهم لصلاح الدين من قوة اذ كانوا جميعا شبه مستقلين وكان صلاح الدين فى شغل من حروبه فلم نسمع بعد سنة ١١٧٦ ان واحدا منهم خرج عليه لا بل لم نسمع أن واحدا منهم قصر عن أن يكون مثالا عاليا فى التضحية والايثار والاقدام بنفسه فى مقدمة جنوده . لنذكر كل ذلك ثم لنحكم على عظمة الرجل الذى كان قطب تلك الحوادث وجماع أمرها

الى مستوى العظمة أمكنه أن يخترق الحجب السطحيـــة وأن يتغلغل الى الحقائق المجردة من التمويه والاعراض • ولهذا كان عظماء الرجال دائما ممتازين ببساطة التفكير وبساطة الخطط وبساطة النظرة الى الحياة • فينظرون الى أنفسهم والى الناس أنهم جميعا خلق متشابهون فى كثير ويختلف بعضهم عن بعض بحسب طباعهم لا بحسب الاصطلاح والوضـع • وهكذا كان صلاح الدين بسيطا فى كل شيء : فى نظـرته الى الحيـاة ، فى تفكيره ، فى سلوكه ، فى معاملاته ، فى حياته ، فى نظرته الى نفسه والى الناس •

كان لا يظهر بأنه سيدالدولة الاسلامية بل يقفأمام أمرائه الكبار وأحقر خدمه على السواء بصفتهرجلا أمامرجال لا يفرق بين أحد والآخر الا بمقدار حظه من الرجولة ولعله كان واثقـا أو كان واثقا بطبعه بغير تفكير ، من أنه أقوى من كل من دونه من الرجال بغير حاجة الى أن يرتكز على مســـاعدة أبهة الملك وهيبة السلطان • وكان أمراؤه مع ما يعطيهم من الحرية وما كان لهم فى عصرهم ذاك من القوة والنفوذ ، كانوا يتضاءلون أمامه ولا يجسر أحد أن يعصى اذا أمره،لا خوفا من قوته المادية ولكن طاعة لابد منها لشخصه القوى

فلم يكن يحرك على أمير جنودا بل يكلمه الكلمة الوديعة ثم يتركه فاذا هو خاضع ولو كان ممن لا يأسرهم الاحسان

والى جانب هذا كان لا يرى فرقا كبيرا بينه وبين أقل خدمه بل يتجاوز ويحكم بطبعه بغير تكلف ـ فقد رمى أحدالخدم آخر

بحذاء فتجاوز حتى وصل اليه هو فأدار وجهه للناحية الاخرى حتى لا يحرج ذلك الخادم • وكان اذا عرضت عليـه القصص يزدحم الناس عليه حتى لقد يطأون طراحته وهو لا يتأثر (١)

وطلب في قضية خصما فجلس في مجلس القضاء ولم يتكبر مع أن الحق كان معه • وأراد مملوك مرة أن يوقع منه على ورقة فاعتذر له بالضجر وطلب اليه أن يؤجل ذلك فألح فقال له ان الدواة غير حاضرة فأشار المملوك الى دواة كانت على مسافة منه فنظر صلاح الدين فوجدها فمال نحوها ببساطة مرتكزا عـلى يده حتى بلغها بمشقة ثم وقع له بما شاء ولم ير في ذلك شيئا

وكان اذا مرض أحد أتباعه أرسل يسأل عنه مرارا ولو كان هو نفسه مريضا • وكان كثير الوداعة فى دائرة أسرته يجالس أولاده ويباسطهم ويضاحكهم لاسيما الصغارمنهم وكانمعروفا دائما بالعطف على كل ضعيف لاسيما الشـيوخ والنسـاء والاطفال (٢) فلا غرابة لمن كان مثل ذلك اذا كانت طاعة الناس

---

(١) ولقد ذكر انه بعد انصرافه عن عكا واخذ الفرنج لها ذهب الى الساحل لكي يدمر حصونه ، وكان هو فيمن يدمر تلك الحصون بنفسه يعمل كواحد من العمال فيحمل الاخشاب فوق كتفه وكذلك كان عند بناء حصون القدس يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الامكنة البعيدة « فيقتدى به العسكر فكان يجمع عنده من العمالين فى اليوم الواحد من يعملون قدر عدة ايام »

(٢) ولم يكن هناك فرق فى رحمته بين المسلم وغيره ومن الامثلة الكثيرة على هذا قصة الرضيع التى وقعت فى أثناء حصار عكا فى الايام الاخيرةالتىضاق فيها الحصار على المدينة وضاق صدر صلاح الدين فيها مما يجده المحصورون من البلاء ولكن نفسه ما كانت لتقسو ولو اشتد كربها

له طاعة طبيعيةيغتصبها بشخصه القوى ، وتبذل له حبابالطبع بغير تكلف

(د) والرجل العظيم شديد الاحساس دائما ولو انإحساسه لا يخرج أعماله عن ارادته وسيطرته ـ وكل ما يرد في سير العظماء يدل على أنهم كانوا من أشد الناس عاطفة • ولو أنهم كانوا يملكون ناصية تلك العواطف • وقد كان صلاح الدين شديد العاطفة يزيد به الفرح اذا لقى صديقا حتى يبكى،ويزيد به الوجد اذا اهتم لأمر حتى لا يأكل ولا ينام بل يقضى كل وقته في عمل مستمر ، ويملكه السرور أحيانا فتهون عنده الدنيا وما فيها وتهزه الاريحية فيهب كل ماله،وتستهويه ملاهى الرجولة فيقضى فى الصيد أياما يشعر بلذة أى لذة فى أن يسرح بين المروج ويتردد فى وديان الفلاة الفسيحة ، ثم يستثيره الطرب الحلال الى الجمال فيهتز لقول الشاعر اذ يقول أمثال :

وزارنى طيف من أهوى على حذر
من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولى به فرحا
وكاد يهتك ستر الحب بى شغفا
ثم انتبهت وآمالى تخيل لى
نيل المنى فاستحالت غبطتى أسفا

فالحق أن الذى لا تهزه العواطف الوثابة يكون أثقل مادة من أن ينهض الى الآفاق العالية

(هـ) هذا من جهة الشخصية ولكن الى جانب هذا يمتـــاز العظيم دائما بقوة العقل والذكاء ، والواقع أن قوة العقل والذكاء ما هى الا نتيجة لازمة للقوة العصبية وقد كان صــلاح الدين على أكبر ما بلغه الانسان من قوة العقل . أنه لم يكن عالمــا بالمعنى الاكبر ولو أنه كان على شيء كثير من الاطلاع فى الحديث وشيء من الفقه والادب ولاسيما أنساب العرب ووقائعهم وسيرهم فنعرف مثلا أنه قرأ فيما قرأ كتابا فى الفقه من تصنيف الرازى، وكان فى الصباح يقرأ بعد الصلاة شيئا من الحديث أو الفقه مع بعض الاشياخ مثل القاضى بهاء الدين بن شداد . ولــكن ذكاءه القوى كان يــسد ما فى علمه من نقص ولهذا كان أكبر مدرسى عصره يحسبون لعلمه حســـابا اذا ما أحاطوا به فى مجلسه الحافل بكبار أهل العلم فى عصره . وكانت وجـــوه مناقشته ونقده تدل على مقدار فهمه . واذا وصفناه بالفهم فانا نقصد بالطبع أنه كان من أهل السنة المتشـــددين فى مسألة العقيدة واذا كانت المغالاة فى ذلك عيبا فقد كان مغاليـــا فى التشدد ويعرف عنه أنه قتل جماعة ممن كان يشك فى صدق ايمانهم . ولعل روح العصر تشفع له اذا كان هناك من يميــل الى مؤاخذته فى ذلك

ولكن صلاح الدين كان رجل سياسة وحرب ولم يكن برجل العلم ولهذا كان ذكاؤه أظهر ما يكون فى أمور الدولة والحروب ـ فقد كان بعيد النظر يتوقع الامر قبل حدوثه من أول بوادره وكثيرا ما كان رأيه فى أمور الدولة خيرا من رأى أجمع عليــه

أمراؤه كلهم • وكان فى اصلاح أمور بلاده يضع يده دائما على مواضع الخلل والضعف وكانت له قدرة عظيمة على القيـــــام بتفاصيل الامور فكان فى وقت واحد يدير الحرب ويرسم الخطط ويرسل الى الاقاليم المختلفة التى فى دولته يرسم خطط الاصلاح الداخلى ويملى ارادته فى الادارة المحلية • ويقوم فى أثناء هذا وذاك على مراقبة كل ما يجرى فى القضـــــاء فى بلاده على يد القضاة ، وما يجرى من الامور فى جيشه الكبير حتى لقد كان كل جندى يظن أن عين صلاح الدين واقعة عليه وكانت حماسة جنوده ناشئة من اعتقادهم أنه يعرف ما يعملون ويجـــــازى الاحسان ويعاقب الاساءة على طريقته فى الجزاء والعقاب

(و) على أن صلاح الدين يمتاز فوق كل هذا بميزة قل أن توجد فى غيره من العظماء فقد ذكر التاريخ كثيرين ممن جمعوا قوة الشخصية وقوة العقل وأحدثوا فى العالم بهـذه الميزات آثارا كبرى ولكن قل أن نجد من هؤلاء العظماء من كان فى نفس الوقت عظيما وقديسا • بل ان كثيرا منهم كانت له سقطات فى خلقه ـ اما من قسوة واما من عدم تردد أمام الوسائل لبلوغ غاياتهم واما من تجاوز لحدود الاخلاق الفاضلة ـ بل ان كثيرين من العظماء يرون الفضائل دون قدرهم ويظنون أنها قيـــود وضعت للدهماء الذين هم فى مستوى دون مستواهم • ولكن صلاح الدين كان من القلائل الذين جمعوا الخلق الكريم والعقل القوى والشخصية المسيطرة

فكان متدينا منذ أول حياته ولكنه كان مخطئا بعض الخطأ

في صباه حتى اذا ما دخل ميدان العمل في أول رجولته ترك اللهو وتاب عما حرمه الله • ولكن عقيدته لم يتدخل اليها خلل في وقت من أوقات حياته وكان حريصا على أن تكون عقيدة أبنائه قائمة على صخرة فكان يعلمهم بنفسه أول قواعد الدين

وأما فروض الدين من الصلاة فكان مواظبا عليها ويصلي نوافل فوقها كثيرة ولم يترك الصلاة الا عندما اشتد عليه مرض الموت وتغيب ذهنه في الايام الثلاثة الاخيرة • وكان يؤدي الزكاة عن ماله القليل ولو أنه لم يكن في وقت من حياته كثير المال لكرمه وكثرة نفقته في وجوه الخير • وليس أدل على ذلك من أنه لم يترك عند وفاته في خزائنه أكثر من سبعة وأربعين درهما وجراما واحدا ذهبا ولم يخلف ملكا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية ولا مزرعة

وأما الصوم فقد كان يشتد عليه ولاسيما في ميدان الحرب وأيام المرض وكان ضعيف الجسم فلهذا كان يتأخر عليه فوائت وحاول أن يقضيها بعد أن انتهى من حروبه ولكنه مات وعليه بعضها

ولم يستطع الحج مع عزمه عليه وشدة شوقه اليه اذ لم يمهله الاجل بعد أن فرغ من الجهاد ليتم تلك الفريضة • ومن العجيب أن نعرف أنه في العام الوحيد الذى خلا من الجهاد في آخر حياته لم يستطع الحج « لخلو اليد عما يليق بأمثاله »

وكان رقيق النفس يهتز اهتزازا شديدا لسماع القرآن والحديث وكان كثير الثقة بالله الى درجة قد يعدها البعض خرافة

ولكن الحقيقة أن ثبات نفسه كان يدفعه الى الاطمئنـــــان الى ما يجرى به القضاء واثقا بأنه قد بذل ما فى وسعه وأن الحيلة بعد ذلك فى تصريف القضاء ليست فى يده

ولكن التدين وحده ليس كل ما اتصف به ذلك الرجل الفذ فقد كان خلقه مما يزين أبعد الناس عن الدين فيقربه الى نفوس المتدينين · فكان لا يرى الغاية تبرر الوسيلة ولهذا لم ينزل فى جهاده مع حماسته وشدة ايمانه لقصده الى سلوك سبل تأباها المكارم ــ فلم يغدر مرة ولم يقل كلمة الا وفى بها ولم يعد حتى يكون قصده الوفاء وكان فى هذا يسوى بين صديقه وعدوه فكان يأبى مع أعدائه آلا أن يكون منازلا شريفا ــ فلم تحفظ عليه هنة ولم يعرف عنه نقض لعهد ولا سعى دنىء فى الخفاء وقد انتصر فى حطين وفتح القدس نصرا عظيما فلم يبطره ذلك ولم يدر رأسه فيدفع به الى انتقام أو قسوة بل تجلت شفقته على الضعيف وبره بالوعد ورحمته بالانسان ولو كان من غير جنسه ودينه بل لو كان من أشد أعـدائه · ولم يكن فى نفسه حقد ولا حب انتقام · ويتجلى ذلك من وصيته لابنه اذ قال : « واحذرك من الدماء والدخول فيها فان الدم لاينام ــ وأوصيك بحفظ قلوب الرعيـــة والنظر فى أحوالهم ··· ولا تحقد على أحد فان الموت لا يبقى على أحد واحذر ما بينك وبين الناس فانه لا يغفر الا برضاهم وأما ما بينـك وبين الله فانه يغفره بالتوبة اليه فانه كريم » وكان غضبه اذا غضب للمكارم والشرف فقتله لارناط الغادر صاحب الكرك لايذمه أحد وايقاعه

بشاور الوزير المصرى لا يجد مؤرخ غبارا عليه اذ كان فى كل ذلك غاضبا للشرف والرجولة والعهود • وكان عادلا عـــدالة لا قيد عليها ولو كان على اهله ونفسه فكان يأخذ من ابناء اخوته ومن أبنائه ومن نفسه اذ قام دليل على ان القانون يحكم عليهم او عليه . على أن كل مايذكر عن مواقفه امام القضاء يدل على انه كان على الحق . فكان اذ تبرأ امام القانون مما طلبه خصمه تكرم على ذلك الخصم فوهبه مايسمح به كرمه علما منه ان ذلك الخصم ماالندفع الى ماالندفع اليه من الخصومة الا لحاجة قامت به

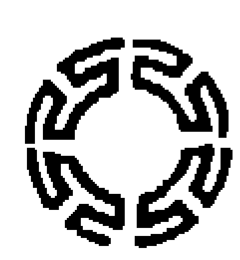
وكان كريما ينفق ما فى يده وأكثر مما فى يده فى سـبيل الخير والاحسان ولم يترك ميراثا من ذهب أو فضة أو ملك لهذا السبب • ذلك وهوصاحب الدولة العظيمة التىألبست فرعون وكسرى ذهبا ، وجعلت لهما أهراما وايوانا•فكان أحيانا يذكر المال قائلا : « يمكن أن يكون فى الناس من ينظر الى المال كما ينظر الى التراب » ولعله كان يريد بذلك نفسه

وكان بعـــد كل ذلك حسن العشرة لطيف المعـاملة طيب الفكاهة • وكان مجلسه طاهرا من الرجس لا يذكر بين يديه الا خيرا اذ كان لا يحب أن يسمع الا خيرا • ولم يشتم أحداولم يعل صوته فى تأنيب أحد من خدمه الا مراجعـــة لطيفة ولو اشتد موجب التأنيب ومثل منذلك ما حدث أيام مرضه وذلك أنه أدخل الحمام فوجد الماء حارا فطلب ماء باردا فأحضره الذى يخدمه فسقط من الماء شيء على الارض فناله منه شيء فتألم له

لضعفه ثم طلب الماء البارد أيضا فأحضر فلما قاربه سـقطت الطاسة على الارض فوقع الماء جميعه عليه فكاد يهلك فلم يزد على ان قال للغلام : «ان كنت تريد قتلى فعرفنى» ثم سكت عنه

وكان فى حياته الداخلية هادئا محبا محبوبا ـ يودع أبناءه بأن يقبلهم ويمسح على رؤوسهم ، وكان يصحب أولاده واخوته فى الصيد ، وكان يداعب أبناءه الصغار ويعيش فى داخل بيته غير متكلف ، وكان يطلب أحيانا أكلا بسيطا كأرز بلبن وأمثاله فيأكل مع من حضر من رجاله الاخصاء وأولاده كما يفعل أى عامل من أوساط الناس

على مثل هذا كان صلاح الدين فى حياته وقد خلا العـالم بوفاته من نور أشرق عليه حينا ولم يبق الا ذكرا نردده عنه لعل فيه أسوة ومنار هدى



محتويات الكتاب

الـكتاب القادم

ياولدى
هـــذا عمك جمـــال

مذكرات أنور السادات

يصدر فى يوليو القادم

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت صندوق بريد ١٠١٢ (الاعداد ترسل بالطائرة)

العراق : السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد

البرازيل : Dr. Michel H. Thomé,
Pateo Do Colegio N° 3
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

غانا : Mr. Joseph Hassan,
The Cine Travel Co,
P.O.Box 1883,
ACCRA, GHANA

هذا الكتاب

كلما داهمت الخطوب الامة العربية ، قيض الله لها بطلا من بنيها ، فبدد ظلام الفرقة والانقسام ، ووحد كلمتها ، وجند صفوفها ، وحررها من الغاصب المستبد . ما اشبه اليوم بالامس : ففى القرن الثانى عشر ، مزقت الخلافات والانقسامات الامة العربية وشتتت قواها ، فوقعت فريسة سهلة للصليبيين . ثم ظهر البطل صلاح الدين الايوبى ، فوحد كلمة العرب وجمعهم فى كتل متراصة ، ألقت بالعدو ودسائسه فى البحر . وحرر الآمة العربية وأعاد اليها عزتها وكرامتها

ونفخر سلسلة « كتاب الهلال » ، فى هذا الوقت الذى نكافح فيه شعوب العرب ، ملتفة حول بطل جديد من أبنائها للقضاء على الفرقة والانقسام ، ودسائس الاستعمار ، فى سبيل استعادة مجدها وعزتها ، أن تقدم كتاب « صلاح الدين الايوبى » للاستاذ محمد فريد أبو حديد . ففيه سيرة عطرة ، مرت بالامة العربية فى ظروف مشابهة ... ففيه عظة وعبرة ، وفيه حافز نبيل يشحذ الهمم والعزائم

7
2